ذلك الدين القيم

الخسارة الفادحة للأمة بإهمالها التوقيت القمري وغفلتها عن التأريخ الهجري

سماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

الكلمة الطيبة

جميع الحقوق محفوظة

الكلمة الطيبة
مسقط - سلطنة عُمان

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

تتشـــرف الكلمة الطيبة المتخصصة في النتاج العلمي لســـماحة العلامة الجليل الوالد الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان

AhmedHAlKhalili@

بتقديم هذه الطبعة التفاعلية الخاصة بأجـهزة الحـاسوب والأجهزة الذكية من هذا الجواب القيّم، فما على القارئ سوى الضغط على العنوان في **الفهرس** ليصل تلقائيًا إلى الموضوع، والعودة **للفهرس** مجددًا بالضغط على كلمة (**الـمـحـتـويـات**) الـمـوجـودة أسـفـل كـل صـفـحـة

تنبيه:

يجب تحميل تطبيق Adobe Acrobat Reader للاستفادة من الميزة التفاعلية

المحتويـات

المقدمة ٦
ميزة التوقيت الشهري بالأهلة ١٩
أهمية التأريخ الهجري ٤٥
النذر التي تلوح من الإشارات الحمراء في هذا الأمر ٨٢
مشروعية سد ذرائع الفساد ١٠٢
لا مانع من الاستفادة ١١٥
الحـــل المقتـرح ١١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ
أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ

آل عمران: ١٤٩

المقدّمة

الحمد لله الذي جعل الليل والنهار خلفة، والشمس والقمر حسبانا؛ لضبط الأوقات ومعرفة السنين والحساب، أحمده حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة اعتزاز بعبوديتنا له وربوبيته لنا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله أفضل من يُقتدى به ويُعتز بهديه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه، قادة البشر إلى الخير، ودعاتهم إلى البر والإحسان، وعلى كل من تبع هديهم إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فقد قسّم الله تعالى الزمن الذي نعيشه إلى وحدات وقتية، منها الضيق ومنها الواسع، ولا بد للإنسان وهو

يجتاز مرحلة هذه الحياة من معرفة هذه الوحدات وربط أحداث الدهر بها من أجل ضبطها وتصور مواقيتها، وقد جعل الله تعالى الليل والنهار خلفة في تعاقبهما، وبضبط ما يتولد منهما من أيام وتصور مدى تعاقبهما يمكن للإنسان أن يعرف مقادير الشهور والسنين وضبط تواريخها؛ ليكون على بينة من مواقيت أحداثها، ومن فضل الله على عباده أن يسر لهم معرفة بدايات الشهور ونهاياتها، بأن جعلها مقرونة بأمر طبيعي يشترك في مشاهدته الذكي الفطن والغبي الأرعن، فلا يعسر على أحد معرفته.

فقد جعل الله تعالى بداياتها مقرونة بظهور الهلال بعد سراره، ونهاياتها منوطة بتحقق ذلك، فبداية كل شهر نهاية لما قبله، وقد امتن الله تعالى على عباده بذلك في إطار تشريعه لضبط حساب الأيام بهذا الأمر الواضح الجلي، الذي يشترك في معرفته الرجل والمرأة، والكبير والصغير، والعالم والجاهل، والقارئ والأمي، فقال في ذلك: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ

ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

ولا يخفى على ذي بصيرة ما في هذا الامتنان العظيم منه سبحانه على عباده من تشريع التوقيت الشهري بهذا الأمر، ولذلك ناط الله تعالى بهذا جميع الأحكام الشرعية، فمواقيت الصلاة اليومية تعرف بما يتراءى لهم من ضوء الشمس من بدايات طلائعه التي تكون ببزوغ الفجر، ومرورا بالزوال وتساوي ظل كل شيء بحسب قدره إلى غروبها، وما يتبعه من اختفاء الشفق في الأفق، وهذا الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقد نيطت بظهور الأهلة عبادات دورية منها الصيام الذي خص الله به شهر رمضان في قوله:

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ومنها الزكاة التي تجب في الأموال بمرور الحول كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا زَكَاةَ فِي مَالٍ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ»(١)، وكذلك الحج الذي وقَّته الله تعالى بأشهر خاصة في قوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي على المشهور شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وقيل: عشرون منه، وقيل: كله، وكذلك عدة الوفاة كما نصَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ومثل

(١) أخرجه ابن ماجه في **سننه**، (١٢/٣) برقم: (١٧٩٢) (أبواب الزكاة، باب من استفاد مالا)، والبيهقي في **سننه الكبير**، (٩٥/٤) برقم: (٧٣٦٩) (كتاب الزكاة، باب لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول)، والدارقطني في **سننه**، (٤٦٩/٢) برقم: (١٨٨٩) (كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة بالحول).

ذلك التربص للإيلاء حتى تنقضي العدة فتبين المرأة أو يفيء إليها الرجل كما نصَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٦ ـ ٢٢٧]، وكذلك تربص المطلقة إن كانت صبية أو آيسا فإنه يكون ثلاثة أشهر قمرية بدلا من ثلاثة قروء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤].

وَثَمَّ أحكام خاصة ببعض هذه الأشهر كالأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال لقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقد نصَّ الله على أنها أربعة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [التوبة: ٣٦]،

وكم في هذه الآية الكريمة من دليل على وجوب التوقيت بهذه الأشهر دون غيرها:

أولها: أنها تضمنت أن هذه الأشهر هي المعتد بها عند الله، إذ قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا﴾، ومعنى ذلك أن على عباده أن يتمسكوا بها، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وما كان عند الله فإنه حكمه الذي لا تجوز مخالفته، وكل حكم سواه هو حكم جاهلي، كما قال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثانيها: تأكيد ذلك بقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وسواء قلنا بأن المراد بكتاب الله حكمه، كما في قوله تعالى بعد تعداد المحرمات: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٤]، أي كتب الله ذلك كتابا عليكم بمعنى حكم به عليكم ما كان لكم أن تخالفوه، أو قلنا إن كتاب الله

هو لوحه المحفوظ، كما قال القرطبي: «يريد اللوح المحفوظ، وأعاده بعد أن قال «عند الله»؛ لأن كثيرا من الأشياء يوصف بأنه عند الله، ولا يقال إنه مكتوب في كتاب الله، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤][1].

ثالثها: قوله: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ومعنى ذلك أن هذا الحكم هو حكم الله تعالى منذ بداية الخلق كما قال القرطبي: «إنما قال: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض، وأنزل ذلك على أنبيائه في كتبه المنزلة. وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا﴾، وحكمها باقٍ على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها، وتقديم المقدم في الاسم

(١) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ١٣٢/٨، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط: ١٩٦٥م.

منها. والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها، ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها، وتعليق الأحكام على الأسماء التي رتبوها عليه؛ ولذلك قال عليه السلام في خطبته في حجة الوداع: «**أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض**»[1]»[2].

رابعها: قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾، ولا توجد الأشهر الحرم في غيرها ولو واقتها في العدد.

خامسها: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾، وكفى به تأكيدا على وجوب التزامها، ففي هذا التعبير تعرف

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٦/٦) برقم: (٤٦٦٢) (كتاب تفسير القرآن، باب قوله إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا)، ومسلم في «صحيحه» (١٠٧/٥) برقم: (١٦٧٩) (كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال)، وأحمد (رقم: ٢٠٤٠٢، ٣٧/٥)، ورواه الربيع مرسلا (رقم: ٤٢٢، ص ١١٣ ـ ١١٤).

(٢) المرجع السابق، ١٣٢/٨ ـ ١٣٣.

المسند والمسند إليه، وذلك مما يفيد الحصر، فانحصر الدين في هذا في التمسك بهذه الأشهر، والخروج عن ذلك إنما هو خروج عن الدين، قال القرطبي: «أي الحساب الصحيح والعدد المستوفى. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: » ذلك الدين» أي ذلك القضاء. مقاتل: الحق. ابن عطية: والأصوب عندي أن يكون الدين ها هنا على أشهر وجوهه، أي ذلك الشرع والطاعة.» القيم» أي القائم المستقيم، من قام يقوم. بمنزلة سيد، من ساد يسود. أصله قيوم»[1].

وقد نيط بانسلاخ هذه الأشهر الحرم المذكورة هنا إباحة قتال المشركين، بل الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٥]،

(١) المرجع السابق، ١٣٤/٨.

وترى أن الله تعالى جعل عدة هذه الشهور وتخصيص بعضها بحرمة القتال فيه من الدين القيم، ولم يكن أمر ذلك أمرا بدعا، وإنما هو منذ خلق الله السماوات والأرض، كما هو واضح في آية التوبة.

وذكر صاحب المنار في تفسيرها ما نصه: «المراد الشهور التي تتألف منها السنة القمرية وواحدها شهر، وهو اسم للهلال أو القمر من مادة الشهرة، ثم سميت به الأيام من أول ظهور الهلال إلى سراره، ومبلغ عدتها اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله، وأثبته من نظام سير القمر وتقديره منازل، يوم خلق السماوات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن، والمراد بيوم خلق السماوات والأرض: الوقت الذي خلقهما فيه باعتباره تمامه ونهايته في جملته، وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله وخلق كل منهما وما فيهما.

فالكتاب يطلق على نظام الخلق والتقدير والسنن الإلهية فيه؛ لأنه ثابت كالشيء المكتوب المحفوظ

الذي لا ينسى، أو لأنه تعالى كتب كل نظام عن خلقه في كتاب عنده في عالم الغيب يسمى اللوح المحفوظ، وقد فسر به الكتاب هنا، قال تعالى حكاية عن موسى في جوابه لفرعون على سؤاله عن القرون الخالية: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ [الحشر: ٣]، وهذا كله بمعنى النظام الإلهي القدري، وتقدم بحث كتابة المقادير في تفسير سورة الأنعام، وقيل: إن المراد بكتاب الله هنا حكمه التشريعي لا نظامه التقديري، ومنه حرمة الأشهر الحرم، وكون الحج أشهرا معلومات، ومن أحكام كتاب الله التشريعية أن كل ما يتعلق بحساب الشهور والسنين كالصيام والحج وعدة المطلقات والرضاع فالمعتبر فيه الأشهر القمرية. وحكمته العامة أنها يمكن العلم بها بالرؤية البصرية للأميين والمتعلمين في البدو والحضر على سواء،

فلا تتوقف على وجود الرياسات الدينية، ولا الدنيوية، ولا تحكم الرؤساء. ومن حكمة شهر الصيام، وأشهر الحج أنها تدور في جميع الفصول، فتؤدَّى العبادة بهذا الدوران في كل أجزاء السنة، فمن صام رمضان في ثلاثين سنة يكون قد صام في كل أجزاء السنة، ومنها ما يشق الصيام فيه وما يسهل، وكذلك تكرار الحج، وفيه حكمة أخرى في شأن الذين يسافرون له في جميع أقطار الأرض التي تختلف فصولها، وأيام الحر، والبرد فيها.

وإطلاق (الكتاب) بهذا المعنى معروف، ومنه قوله تعالى بعد سرد محرمات النكاح: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٤]، ولكن ذكر خلق السماوات والأرض أشد مناسبة للأول، ويناسب الثاني قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ [التوبة: ٣٦] ـ واحدها حرام كسحب جمع سحاب ـ، وهو من الحرمة؛ فإن الله تعالى كتب وفرض احترام هذه الأشهر وتعظيمها، وحرم القتال فيها على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ونقلت

العرب ذلك عنهما بالتواتــر القولي والعملي، ولكنها أخلت بالعمل اتباعا لأهوائها»[1]. اهـ

ويناط بهذه الأشهر بعض الأحكام المندوبة كصيام الست من شوال، والتسع من ذي الحجة، وثلاثة أيام من كل شهر وهي الأيام البيض، وكذلك يوم عاشوراء، وهو يدل على أنها مدار الأحكام الشرعية بأسرها.

(١) رشــيد رضــا: **المنــار**، ١٠/٣٥٧ ـ ٣٥٨، الهيئة المصريــة العامة للكتاب، ط: ١٩٩٠م.

ميزة التوقيت الشهري بالأهلة

تبين لك أيها القارئ الكريم ما يتميز به التوقيت القمري للشهور من كونه أمرا معلوما لا يخفى على اللبيب وغيره؛ لأن بداية هذه الشهور ونهايتها معقودة بأمر طبيعي وهو رؤية الهلال أو إتمام عدة أيام الشهر المتقدم ثلاثين يوما، كما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام من عدة طرق، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوُا الْهِلَالَ وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا لَهُ»، وفي رواية أخرى: «فَأَتِمُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رمضان فقال: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوُا الْهِلَالَ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ»[2]، وعن

(١) رواه الربيع في مسنده، (كتاب الصوم، باب النهي عن صيام العيدين ويوم الشك)، (١٤٩/١)، برقم: (٣٢٧).

(٢) رواه مالك في موطئه، (كتاب الصيام، ما جاء في رؤية الهلال للصيام والفطر في رمضان)، (٤٠٨/٣)، برقم: (٢٩٩).

عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا البختري، قال: أهللنا رمضان ونحن بذات عرق، فأرسلنا رجلا إلى ابن عباس يسأله، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَدَّهُ لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ أُغْمِيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوُا الْهِلَالَ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ»[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعَدَدَ»[3]، وعن حسين بن الحارث الجدلي قال: خطب عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب

---

(١) رواه مسلم في **صحيحه**، (كتاب الصيام، باب بيان أن لا اعتبار بكبر الهلال وصغره وأن الله تعالى أمده للرؤية فإن غم فليكمل ثلاثون)، (٧٦٦/٢)، برقم: (١٠٨٨).

(٢) رواه البخاري في **صحيحه**، (كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا»)، (٢٧/٣)، برقم: (١٩٠٦).

(٣) رواه مسلم في **صحيحه**، (كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال وأنه إذا غم في أوله أو آخره أكملت عدة الشهر ثلاثين يوما)، (٧٦٢/٢)، برقم: (١٠٨١).

في اليوم الذي يشك فيه فقال: ألا إني قد جالست أصحاب رسول الله ﷺ وساءلتهم، ألا وإنهم حدثوني أن رسول الله ﷺ قال: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَانْسِكُوا لَهَا، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَتِمُّوا ثَلَاثِينَ، وَإِنْ شَهِدَ شَاهِدَانِ مُسْلِمَانِ فَصُومُوا وَأَفْطِرُوا»[1].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ الْأَهِلَّةَ مَوَاقِيتَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَشْهُرَ لَا تَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ»[2]، وعن قيس بن طلق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل جَعَلَ هَذِهِ الْأَهِلَّةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ، صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَتِمُّوا الْعِدَّةَ»[3].

وقوله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَشْهُرَ لَا تَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ) دليل واضح على أن العبرة في

(١) رواه أحمد في مسنده، (١٩٠/٣١)، برقم: (١٨٨٩٥).
(٢) رواه الحاكم في مستدركه، (كتاب الصوم)، (٥٨٤/١)، برقم: (١٥٣٩).
(٣) رواه أحمد في مسنده، (٢٢١/٢٦)، برقم: (١٦٢٩٤).

حكم الإسلام بالأشهر القمرية دون الشمسية؛ لما عرف قطعا أن تلك فيها ما يزيد على الثلاثين يوما كما هو معروف.

وبهذا يتميز التوقيت القمري بيسر معرفته لكل أحد فلا يعسر على أحد فهمه بلا فرق بين الفطن والخامل، وذلك بخلاف توقيت الشهور الشمسية الذي يتوقف على الحساب ومعرفة انتقال الشمس في أبراجها، وذلك أمر عسير إلا على من درس دقائق علم الفلك وسبر أغواره، وذلك ينافي تيسير الدين الذي ميز الله تعالى به الإسلام فجعله معروفا لجميع فئات الناس على اختلاف بيئاتهم وتباين مداركهم، مع أن النبي ﷺ بعث في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، ولكنها مع أميتها كانت بصيرة بأحوال الشهور خبيرة ببداياتها ونهاياتها؛ لأنها موقوتة بأمر طبيعي، يتفق في معرفته الخواص والعوام، وقد بين النبي ﷺ أمية الأمة التي بعث فيها، وإن كان بعثه فيها سببا لانتقالها من تلك الأمية إلى القراءة والعلم، كما امتن الله تعالى

عليهم بذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وجاء بيان حالها وكون الأحكام الشرعية تتفق مع ما هي عليه، كما جاء ذلك في حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا»، يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ[1].

أما معرفة الأعوام بداياتها ونهاياتها فذلك سهل ليسر تعداد شهورها لقلتها، فإنها اثنا عشر شهرا في كل عام، وقد بين ابن تيمية هذه الخصوصية التي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في **مصنفه**، (٦/٢٩٤) برقم: (٩٦٩٧) (كتاب الصيام، ما قالوا فِي الشهر كم هو يوما)، وأحمد في **مسنده**، (٣/١١١٩) برقم: (٥١١٢)، والبخاري في **صحيحه**، (٣/٢٧) برقم: (١٩١٣) (كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: لا نكتب ولا نحسب)، ومسلم في **صحيحه**، (٣/١٢٣) برقم: (١٠٨٠) (كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال والفطر لرؤية الهلال)، وأبو داود في **سننه**، (٢/٢٦٦) برقم: (٢٣١٩) (كتاب الصوم، باب الشهر يكون تسعا وعشرين).

يتميز بها التوقيت بالشهور القمرية والتأريخ بأعوامها الهجرية، وفصَّل ذلك تفصيلا في قوله: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس في الأحكام الثابتة بالشرع ابتداء، أو سببا من العبادة، وللأحكام التي تثبت بشروط العبد، فما ثبت من المؤقتات بشرع أو شرط فالهلال ميقات له، وهذا يدخل فيه الصيام، والحج، ومدة الإيلاء، والعدة، وصوم الكفارة، وهذه الخمسة في القرآن، قال الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة، ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ﴾ [البقرة، ٢٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ [النساء، ٩٢]، وكذلك قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة، ٢]، وكذلك صوم النذر وغيره، وكذلك الشروط من الأعمال المتعلقة بالثمن ودين السلم والزكاة والجزية والعقل والخيار والأيمان وأجل الصداق ونجوم الكتابة والصلح عن القصاص وسائر ما يؤجل من دين وعقد، وغيرهما.

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس، ٥]، فقوله: ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ متعلق ـ والله أعلم ـ بقوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ لا بجعل؛ لأن كون هذا ضياء وهذا نورا لا تأثير له في معرفة عدد السنين والحساب، وإنما يؤثر في ذلك انتقالها من برج إلى برج؛ ولأن الشمس لم يعلق لنا بها حساب شهر ولا سنة، وإنما علق ذلك بالهلال، كما دلت عليه تلك الآية؛ ولأنه قد قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التوبة، ٣٦]، فأخبر أن الشهور معدودة اثنا عشر، والشهر هلالي بالاضطرار؛ فعلم أن كل واحد منها معروف بالهلال.

وقد بلغني أن الشرائع قبلنا أيضا إنما علقت الأحكام بالأهلة، وإنما بدل من بدل من أتباعهم كما يفعله اليهود في اجتماع القرصين، وفي جعل بعض

أعيادها بحساب السنة الشمسية، وكما تفعله النصارى في صومها، حيث تراعي الاجتماع القريب من أول السنة الشمسية، وتجعل سائر أعيادها دائرة على السنة الشمسية بحسب الحوادث التي كانت للمسيح، وكما يفعله الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين في اصطلاحات لهم، فإن منهم من يعتبر بالسنة الشمسية فقط، ولهم اصطلاحات في عدد شهورها؛ لأنها وإن كانت طبيعية فشهرها عددي وضعي، ومنهم من يعتبر القمرية لكن يعتبر اجتماع القرصين، وما جاءت به الشريعة هو أكمل الأمور وأحسنها وأبينها وأصحها وأبعدها من الاضطراب، وذلك أن الهلال أمر مشهود مرئي بالأبصار.

ومن أصحِّ المعلومات ما شوهد بالأبصار، ولهذا سموه هلالا؛ لأن هذه المادة تدل على الظهور والبيان: إما سمعا وإما بصرا؛ كما يقال: أهل بالعمرة، وأهل بالذبيحة لغير الله؛ إذا رفع صوته، ويقال لوقع المطر: الهلل، ويقال: استهل الجنين؛ إذا خرج صارخا،

ويقال: تهلل وجهه؛ إذا استنار وأضاء، وقيل: إن أصله رفع الصوت؛ ثم لما كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته سموه هلالا، ومنه قوله:

يهل بالفرقد ركبانها
كما يهل الراكب المعتمر

وتهلل الوجه مأخوذ من استنارة الهلال، فالمقصود أن المواقيت حددت بأمر ظاهر بين يشترك فيه الناس، ولا يشرك الهلال في ذلك شيء، فإن اجتماع الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الهلال، أمر خفي لا يعرف إلا بحساب ينفرد به بعض الناس، مع تعب وتضييع زمان كثير، واشتغال عما يعني الناس، وما لا بد له منه، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف.

وكذلك كون الشمس حاذت البرج الفلاني أو الفلاني، هذا أمر لا يدرك بالأبصار، وإنما يدرك بالحساب الخفي الخاص المشكل الذي قد يغلط فيه، وإنما يعلم ذلك بالإحساس تقريبا، فإنه إذا انصرم

الشتاء، ودخل الفصل الذي تسميه العرب الصيف، ويسميه الناس الربيع، كان وقت حصول الشمس في نقطة الاعتدال الذي هو أول الحمل، وكذلك مثله في الخريف، فالذي يدرك بالإحساس الشتاء والصيف وما بينهما من الاعتدالين تقريبا، فأما حصولها في برج بعد برج فلا يعرف إلا بحساب فيه كلفة وشغل عن غيره مع قلة جدواه، فظهر أنه ليس للمواقيت حد ظاهر عام المعرفة إلا الهلال.

وقد انقسمت عادات الأمم في شهرهم وسنتهم القسمة العقلية، وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة: إما أن يكونا عدديين أو طبيعيين، أو الشهر طبيعيا والسنة عددية أو بالعكس، فالذين يعدونهما: مثل من يجعل الشهر ثلاثين يوما والسنة اثني عشر شهرا، والذين يجعلونهما طبيعيين؛ مثل من يجعل الشهر قمريا والسنة شمسية، ويلحق في آخر الشهور الأيام المتفاوتة بين السنتين، فإن السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وبعض يوم خمس أو سدس،

وإنما يقال فيها ثلاثمائة وستون يوما؛ جبرا للكسر في العادة ـ عادة العرب ـ في تكميل ما ينقص من التاريخ في اليوم والشهر والحول.

وأما الشمسية فثلاثمائة وخمسة وستون يوما وبعض يوم: ربع يوم، ولهذا كان التفاوت بينهما أحد عشر يوما إلا قليلا: تكون في كل ثلاثة وثلاثين سنة وثلث سنة: سنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف، ٢٥] قيل: معناه ثلاثمائة سنة شمسية؛ ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ بحساب السنة القمرية، ومراعاة هذين عادة كثير من الأمم من أهل الكتابين بسبب تحريفهم، وأظنه كان عادة المجوس أيضا.

وأما من يجعل السنة طبيعية والشهر عدديا؛ فهذا حساب الروم والسريانيين والقبط ونحوهم من الصابئين والمشركين، ممن يعد شهر كانون ونحوه عددا، ويعتبر السنة الشمسية بسير الشمس.

فأما القسم الرابع فبأن يكون الشهر طبيعيا والسنة عددية فهو سنة المسلمين ومن وافقهم، ثم الذين يجعلون السنة طبيعية لا يعتمدون على أمر ظاهر كما تقدم، بل لا بد من الحساب والعدد، وكذلك الذين يجعلون الشهر طبيعيا، ويعتمدون على الاجتماع لا بد من العدد والحساب، ثم ما يحسبونه أمر خفي ينفرد به القليل من الناس مع كلفة ومشقة وتعرض للخطأ، فالذي جاءت به شريعتنا أكمل الأمور؛ لأنه وقت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار؛ فلا يضل أحد عن دينه، ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه، ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه، ولا يكون طريقا إلى التلبيس في دين الله كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم»[1]. اهـ

(١) ابن تيمية: **مجموع الفتاوى**، ١٣٤/٢٥ ـ ١٣٩، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

وما ذكره من كون الشرائع السابقة موقوتة بالشهور القمرية، هو الذي تدل عليه النصوص المتبقية منها فيما بأيدي الناس من كتب الأمم السابقة، كالكتاب المقدس، وأشار إلى ذلك ابن عاشور في قوله: «وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسية للأعياد، ومعلوم أن الأعياد في الدرجة الثانية من أحوال البشر؛ لأنها راجعة إلى التحسين، فأما ضبط الأشهر. فيرجع إلى الحاجي. فألهم الله البشر، فيما ألهمهم من تأسيس أصول حضارتهم، أن اتخذوا نظاما لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأن جعلوه مستندا إلى مشاهدات بينة واضحة لسائر الناس، لا تنحجب عنهم إلا قليلا في قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة، وألهمهم أن اهتدوا إلى ظواهر مما خلق الله له نظاما مطردا. وذلك كواكب السماء ومنازلها، كما قال في بيان حكمة ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: ٥]،

وأن جعلوا توقيتهم اليومي مستندا إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم؛ لأنهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس في مشاهدة ذلك، وبذلك تنظم اليوم والليلة، وجعلوا توقيتهم الشهري بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو المسمى هلالا إلى انتهاء محاقه، فإذا عاد إلى مثل الظهور الأول فذلك ابتداء شهر آخر، وجعلوا مراتب أعداد أجزاء المدة المسماة بالشهر مرتبة بتزايد ضوء النصف المضيء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حذو شكل من النجوم سموه بالمنازل، وقد وجدوا ذلك على نظام مطرد»[1].

ويؤكد أن التوقيت الشهري كان عندهم بحسب الأهلة ما اشتهر من كون النبي ﷺ وجد اليهود بالمدينة يصومون يوم عاشوراء؛ لأنه يوم نجاة موسى عليه السلام، كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قدم

(١) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ١٠/١٨١، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ط: ١٩٨٤هـ.

رسول الله ﷺ المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيما له، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم فأمر بصومه**»[1].

على أن في حركتي الأرض والقمر بحسب تعاقب الأيام وتناسقهما وانسجامهما دقة بالغة، تبصر الناس بمواقيت الشهور القمرية وضبطها، فإن ذلك «يعد تقويمًا واضحًا وحيًّا وطبيعيًّا للغاية، تسهل قراءته على العالم والجاهل، فيتسنى لأي أحد أن ينظم برامج حياته على أساسه، ولو أمعنا التفكير لوجدنا أن مسألة

(١) رواه البخاري في **صحيحه**، (٧٠/٥) برقم: (٣٩٤٣) (كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ)، ومسلم في **صحيحه**، (١٤٩/٣) برقم: (١١٣٠) (كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء)، وأبو داود في **سننه**، (٣٠٢/٢) برقم: (٢٤٤٤)، (كتاب الصوم، باب في صوم يوم عاشوراء)، وابن ماجه في **سننه**، (٦٢٤/٢) برقم: (١٧٣٤)، (أبواب الصيام، باب صيام يوم عاشوراء).

تنظيم حياة الإنسان ترتبط أيما ارتباط بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي، حيث يتكفل القمر والشمس ودوران الأرض المنظم حول نفسها وحول الشمس بإنجاز هذا الدور، وأنّ التقاويم الحالية التي نظمت استنادًا إلى الفلك، ومهارات الفلكيين لا تنفع إلا الذين هم قادرون على فهمها، وإنما التقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي، الذي يتوفر لكل أحد من حركة القمر منذ مرحلة الهلال حتى يتحول إلى بدر، ثم ينقلب إلى المحاق، لو تفحص الإنسان قليلا لاستطاع أن يحدد ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم القمر؛ لأنه لا يستقر على حال واحدة في السماء على مدة ليلتين أبدا، ولعل تنظيم العبادات الإسلامية وفقا للأشهر القمرية نابع من هذا الأمر»[1].

(١) ناصر مكارم الشيرازي، ومحمد هادي معرفة: **تفكروا في عظمة خلق الله ـ للإنسان ـ الحيوان ـ الأرض ـ الكون ـ الحياة**، ص ١٥٥، جمعه واعتنى به: محسن عقيل، دار المحجة البيضاء ـ بيروت، ط ١: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. «بتصرف يسير»

وحسب المسلم أن يكون التشريع في القرآن كله معقودا بالشهور القمرية التي هي مناط العبادات ومدار الأحكام الشرعية، فالعدول عن ذلك إنما هو عدول عن القرآن، إذ لا يخفى على كل من كان له قلب أن مثل قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، هو تشريع للتوقيت بهذه الشهور، وذلك حكم الله تعالى، وكل حكم يخالف حكمه إنما هو حكم جاهلي بنص القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وإذا كان التوقيت بها تشريعا من عند الله تعالى فإن العدول عنه إلى غيره إنما هو إعراض عن الذكر الذي أنزله الله، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرٗا ١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ

رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

أوليس في هذا كله مزدجر لمن آثر العدول عن التوقيت المشروع في القرآن إلى غيره مما وقته الناس لأنفسهم؟! على أن المؤمن ليس من شأنه أن يكون له خيار في حكم أنزله الله تعالى، أو شرعه الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد تظافرت على التوقيت بحسب الأهلة نصوص القرآن وأحاديث النبي ﷺ وإجماع الأمة على ذلك إجماعا قوليا وعمليا لفترة تزيد على ثلاثة عشر قرنا، إلى أن رزئت هذه الأمة في دينها ودنياها بغلبة أعدائها عليها وصوغ حياتها بحسب مقتضى هواهم، مع أنها في الفترة السابقة مرت بها زعازع ونكبت بنكبات، ولكنها لم تعدل عن التوقيت القمري والتأريخ الهجري

في جميع أدوارها التي مرت بها، بل ظلت مستمسكة بذلك إلى أن جاءت فترة الغزو الفكري الذي نكبت به بجانب الغزو العسكري، فاقتيدت إلى حيث يراد لها وهي مسلسة قيادها لمن لا يقودها إلا إلى الهوان، ولا يريد لها إلا خزي الدنيا وعذاب الآخرة والعياذ بالله، فغدت أطوع لعدوها من جوارحه وأتبع له من ظله، يصرفها كما يهوى، وهي قريرة العين هادئة البال مسرورة بهذه التبعية العمياء، وما ذلك إلا أنها سلبت العقول فأصبحت تفكر بعقل المتسلط عليها، وهذا يدل على أن احتلال العقول هو أخطر من احتلال الأرض، وماذا يبقى للإنسان من تصرف سليم عندما يسلب عقله؟ فلأجل ذلك رضيت بهذه التبعية لعدوها مع أنها لا تدل إلا على الهوان والضعف، فإن من شأن الضعيف أن يتأسى بالقوي، ومن شأن المغلوب أن ينقاد للغالب، ومن شأن الذليل أن يستكين للعزيز.

وهذا ما عرف في جميع أدوار التأريخ بالنظر إلى أحوال الغالبين والمغلوبين، فعندما كانت هذه الأمة

قوية عزيزة كانت تؤثر على الأمم ولا تتأثر بها، وتقودها ولا تنقاد لها، وكانت الأمم الأخرى هي التي تتأسى بأمة الإسلام في جميع أحوالها، فكانت «هي التي تقود الأمم وتفرض عليها إرادتها، فتتسارع الأمم إلى الاستجابة لداعيها، وتعتز بأن ترتشف نغبة من كأسها، وتستصبح بشعاع من سناها، فكم سرى إلى غير المسلمين من أفكارهم وسلوكهم ما صار به ذلك الغير يباهي به بإعجاب واعتزاز وافتخار، ومن أمثلة ذلك الحركة التي ظهرت في **سبتمانيا** ـ وهي مقاطعة قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط ـ وكانت تدعو إلى التخلص من طقوس تأصلت في الديانة النصرانية، أهمها التذلل والاعتراف بالذنب أمام القس، فكانت تنادي بإسقاط هذا الحق عن القساوسة؛ لأن الله هو وحده هو غافر الذنب وقابل التوب، ولا دخل في ذلك لأحد من خلقه ولو كان نبيا مرسلا، فضلا عن القسيسين.

وما كان سريان هذا الفكر المستنير إلى أولئك إلا من الإسلام دين الحق الداعي إلى عدم التعلق بغير الله تعالى، وكان هذا في القرنين الثاني والثالث الهجريين أي في القرن الثامن الميلادي، وفي ذلك القرن نفسه ظهر في النصارى مذهب يرفض تقديس الصور والتماثيل، ويرد ذلك إلى الوثنية المتخلفة، وقد سرت هذه الفكرة إلى القمة السياسية في الإمبراطورية الرومانية، ففي عام (١٠٧هـ/٧٢٦م) أصدر الإمبراطور **ليو** الثالث قرارا يحرم فيها تقديسها، وبعد أربعة أعوام أصدر قرارا آخر يعد الإتيان بذلك من الوثنية، وعلى هذا درج **قسطنطين** الخامس و**ليو** الرابع، في حين كان البابا **جريجوري** الثاني والثالث و**جرمانيوس** بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة **إيريني** من مؤيدي عبادة الصور، وأدى ذلك إلى احتدام الصراع بين الفريقين، ومما يؤكد تأثر النزعة الرافضة لعبادتها وتقديسها بالإسلام ما قيل بأن **كلوديوس** أسقف **تورين** الذي شن حربا على الصور والصلبان، فحرقها وحرم

عبادتها في أسقفيته، ولد وترعرع في الأندلس عندما كانت مسلمة عربية، فكان ذلك سببا لهذا التنور الفكري عنده، كما يؤكد ذلك ما صرح به المؤرخ الأوربي الشهير **جبون**، من أن تهكم المسلمين بالنصارى واستخفافهم بأحلامهم المستسيغة لمثل هذه الخرافات، هو الذي أدى بهم إلى هذه الصحوة، فاتخذوا هذا القرار، على أن كثيرا من الكتاب يردون الفضل إلى الإسلام وتأثيره، حتى في حركة **لوثر** الإصلاحية التي حولت جانبا كبيرا من أوربا عن المعتقدات الكهنوتية الغالية التي كبلتهم بأغلالها، وحرمتهم من نعمة التفكير في حالهم ومآلهم، فاسلموا قيادهم لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا، طامعين في غفرانه مشفقين من حرمانه.

وما كان هذا الأثر العميق للإسلام ـ في تلكم القارة التي كانت تعتبره خصما لدودا جاء ليستلب منها نفوذها ويحرر من سلطانها شعوبا عاشت ردحا

من الزمن تحت نير استعبادها ووطأة جبروتها ـ إلا عندما كان المسلمون لا يعتزون إلا بمكارم هذا الدين، ولا يلهثون مسعورين إلى تلكم الدنايا التي تتساقط من مخازي أعدائهم، فيرونها المغنم الذي لا يقدر بثمن والمظهر الذي يجلوهم في صورة مشرقة وضاءة حسب ما يبدو لهم»[(١)].

وما من أمر أسرع في ذوبان الأمة من تبعيتها لغيرها وتخليها عن مواريثها الفكرية والحضارية، فلذلك كان رسول الله ﷺ يحرص كل الحرص على تربية هذه الأمة على الاستقلال في كل شيء، في فكرها وتصورها، وعباداتها وعاداتها، ومظهرها ومخبرها، فكم أمرها بمخالفة غيرها، فقد روي عنه أنه لما أتم حجه خطب الناس بعرفة، فقال: «إن أهل

(١) ينظر للباحث؛ **التحذير من كذبة إبريل**، ص ٤٤ ـ ٤٨، مكتبة الغبيراء ـ بهلاء/سلطنة عمان، والندوي: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**، ص ١١٥ ـ ١١٦، مكتبة الإيمان، المنصورة ـ مصر.

الشرك والأوثان كانوا يدفعون من عرفات إذا صارت الشمس على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، ويدفعون من المزدلفة إذا طلعت الشمس على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، وإنا لا ندفع من عرفات حتى تغرب الشمس ويفطر الصائم، وندفع من المزدلفة غدا إن شاء الله قبل طلوع الشمس، هدينا مخالف لهدي أهل الشرك والأوثان»[1]، ومثله ما رواه ابن أبي شيبة قال: «حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: كان أهل الجاهلية يدفعون من عرفات قبل غروب الشمس، فأخر الله هذه وقدم هذه، أخر التي من عرفة إلى غروب الشمس، وقدم التي من مزدلفة قبل طلوع الشمس»[2]، ومثل ذلك ما ثبت عن

(١) رواه الربيع بن حبيب في **مسنده** عن أبي عبيدة برقم: (٤٢٢)، (ص ١١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في **مصنفه**، (٦٧٥/٨) برقم: (١٥٥٦٢) (كتاب المناسك، في وقت الدفعة من المزدلفة).

أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**جزوا الشوارب، وأرخوا اللحى خالفوا المجوس**»[1].

ولربما ترك النبي ﷺ ما كان سنه من قبل من الأعمال عندما تتبين له موافقته لما عند غير المسلمين، كالذي روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا اتبع الجنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد، فعرض له حبر، فقال: هكذا نصنع يا محمد. قال: فجلس رسول الله ﷺ وقال: «**خالفوهم**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في **مسنده**، (١٨٤٥/٢) برقم: (٨٩٠٧)، ومسلم في **صحيحه**، (١٥٣/١) برقم: (٢٦٠) (كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة).

(٢) أخرجه أبو داود في **سننه**، (١٧٨/٣) برقم: (٣١٧٦) (كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة)، والترمذي في **جامعه**، (٣٢٩/٢) برقم: (١٠٢٠) (أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الجلوس قبل أن توضع)، وابن ماجه في **سننه**، (٤٩٦/٢) برقم: (١٥٤٥) (أبواب الجنائز، باب ما جاء فِي القيام للجنازة)، والبيهقي في **سننه الكبير**، (٢٨/٤) برقم: (٦٩٩١) (كتاب الجنائز، باب حجة من زعم أن القيام للجنازة منسوخ).

وإذا كان هذا في الأمور الاعتيادية كالقيام والقعود، فكيف بما كان أهم من ذلك كتوقيت الشهور الذي تناط به العبادات وتأريخ الأعوام، الذي يرجع إلى حدث الهجرة ذات الشأن العظيم في تأريخ الدعوة الإسلامية.

أهمية التأريخ الهجري

إن الهجرة من مكة وغيرها من الديار إلى المدينة المنورة لم يكن أمرا هامشيا في سير الدعوة الإسلامية، وإنما كان أمرا ضروريا ارتبطت به عزة الإسلام وكرامة المسلمين، ونجاحهم في الدعوة إلى الله، وترجمتهم لإيمانهم إلى واقع عملي، وتجسيدهم لقيم هذا الدين الحنيف، إذ لم يكن للمسلمين شأن بين الأمم قبلها، ولا نظام يوحدهم، ولا مأوى يجمعهم، ولا قوة تحميهم، وإنما كانوا موزعين أشتاتا، وكانت الجاهلية بقوتها وجبروتها وقسوتها وحدتها تصب على رؤسهم ضروبا من المحن، وتحيط بهم من كل جانب ببطشها الشديد وعدوانها المتلاحق، وما كانت تحسب حسابا لهذه الفئة الناشئة، وإنما كانت تتصورها سحابة صيف سرعان ما تنقشع وتنجلي، فلما حدثت الهجرة وجد الإسلام مأرزا يلجأ إليه، ووجد المسلمون نظاما يوحدهم وقوة

تحميهم وتساندهم في إبلاغ رسالتهم إلى الآفاق، وحرية يتفيأون ظلالها الوافرة الظليلة الواقية لهم من هجير الزعازع الذي كان يلفحهم بسمومه، فانقلبت المعايير وأخذت الجاهلية تحسب لهذا الأمر كل حساب.

ولذلك لم تكن الهجرة أمرا اختياريا يعود إلى رغبات الناس أنفسهم، وإنما كانت من صميم الدين، ورباطا يشد المهاجرين والأنصار بعضهم إلى بعض، ويؤاخي بينهم إخاء فاق إخاء النسب، وهذا الذي جعلهم يقتسمون المصالح فيما بينهم، فقد بثت الهجرة التضحية بكل شيء من أجل دين الله تعالى ولنيل مرضاته سبحانه، وقد صور القرآن الكريم تضحية الفريقين المهاجرين والأنصار بدنياهم من أجل أخراهم، كما بين سبحانه تضحيات المهاجرين في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وهو يعكس حالهم في

استهانتهم بجميع حظوظ الدنيا من أجل مرضاة الله تعالى، إذ ليس من اليسير أن يفارق الإنسان داره التي نشأ في أكنافها وارتبط بذكرياتها، واصطبغت مشاعره وأحاسيسه بصبغة أحوالها، ومع ذلك يتخلى عن كل ثروة كانت في يده، ويخلف ذلك كله ليكون نهبة لعدوه.

ثم عطف العنان على الأنصار، وبين كيف كان تخليهم من خصائص الجبلة البشرية المعروفة بالشح والأثرة، وكراهية من يفد من الناس إلى المجتمع من خارج محيطه، ويشاركه في خيراته وفي مناخه، فهم انتزعت منهم هذه الصفات انتزاعا؛ ليحل محل كراهية الوافدين حبهم، والرغبة في تكاثرهم، والحرص على حسن إيوائهم، وإشراكهم في المال والأهل؛ لأنهم أتوا بدون مال وكثير منهم كان بدون أهل، فكان الأنصاري يتخلى عن شطر ماله لأخيه المهاجر، ويعرض له من يرغب فيها من نسائه، ليطلقها لأجل أن يتزوجها، وقد صور ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن

قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

كل هذه الأوصاف السنية التي خلدها الله تعالى للمهاجرين والأنصار تدل على أنهم كانوا كأنما نشأوا نشأة أخرى غير التي كانوا عليها من قبل، فقد صيرهم الإيمان والهجرة أمة مثالية في واقعيتها وواقعية في مثاليتها، كأنهم صنف آخر من غير صنف البشر الموصوف بقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ٢٠]، وإنما زهدوا في المال وفي الدنيا بأسرها ابتغاء ما عند الله، وما عند الله خير وأبقى، فالأنصاري كان يؤثر أخاه المهاجر على نفسه وأهله وأولاده، والمهاجر مع ذلك لم يستفزه الطمع فيما يعرض عليه أخوه الأنصاري من الأهل أو المال، كما صح عن أنس رضي الله عنه قال: قدم عبد الرحمن بن عوف، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك

الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق، فربح شيئا من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة، فقال النبي ﷺ: «**مهيم يا عبد الرحمن**»، قال: يا رسول الله، تزوجت امرأة من الأنصار، قال: «**فما سقت فيها؟**». فقال: وزن نواة من ذهب، فقال النبي ﷺ: «**أولم ولو بشاة**»[1].

ولهذا كانت الهجرة عبادة لله تعالى يشترط لقبولها عند الله خلوص النية، كما يشترط ذلك في الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر العبادات والقربات؛ ولذلك بين النبي ﷺ أن هجرة كل أحد هي محسوبة له أو عليه بحسب ما تكون عليه نيته، كما جاء في حديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْأَعْمَالُ بِالنِّيةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا**

(١) أخرجه البخاري في **صحيحه**، (٥٣/٣) برقم: (٢٠٤٩) (كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾).

يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1].

(١) أخرجه البخاري في **صحيحه**، (٦/١) برقم: (١) (بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله)، ومسلم في **صحيحه**، (٤٨/٦) برقم: (١٩٠٧) (كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية)، وابن حبان في **صحيحه**، (١١٣/٢) برقم: (٣٨٨) (كتاب البر والإحسان، باب الإخلاص وأعمال السر)، (١١٤/٢) برقم: (٣٨٩) (كتاب البر والإحسان، باب الإخلاص وأعمال السر)، والنسائي في **المجتبى**، (٣٩/١) برقم: (١/٧٥) (كتاب الطهارة، باب النية في الوضوء)، والنسائي في **الكبرى**، (١٠١/١) برقم: (٧٨) (كتاب الطهارة، النية في الوضوء)، وأبو داود في **سننه**، (٢٣٠/٢) برقم: (٢٢٠١) (كتاب الطلاق، باب فيما عني به الطلاق والنيات)، والترمذي في **جامعه**، (٢٨٢/٣) برقم: (١٦٤٧) (أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا)، وابن ماجه في **سننه**، (٣٠٥/٥) برقم: (٤٢٢٧) (أبواب الزهد، باب النية)، والبيهقي في **سننه الكبير**، (٤١/١) برقم: (١٨٢) (كتاب الطهارة، باب النية في الطهارة الحكمية)، والدارقطني في **سننه**، (٧٦/١) برقم: (١٣١) (كتاب الطهارة، باب النية) وأحمد في **مسنده**، (٦١/١) برقم: (١٧٠)، والطيالسي في **مسنده**، (٤١/١) برقم: (٣٧) (أحاديث عمر بن الخطاب، الأفراد عن عمر)، والحميدي في **مسنده**، (١٦٣/١) برقم: (٢٨) (أحاديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، والبزار في **مسنده**، (٣٧٩/١) برقم: (٢٥٧) (مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومما روى علقمة بن وقاص الليثي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه).

ولأجل هذه الخصائص التي تميزت بها الهجرة اختارها المسلمون لتكون ميقاتا تأريخيا يبدأ به تأريخ هذه الأمة؛ لأنها خرجت بها من الشتات إلى الاجتماع، ومن الذل إلى العز، ومن الضعف إلى القوة، وقد تمثلت فيها قيم الإسلام وخصائصه في أسمى معانيها، وأبهى صورها، وأجل مظهرها ومخبرها، وقد وقع إجماع الأمة التي لا تجتمع على ضلالة على التأريخ بالهجرة لمزاياها هذه، كما ذكر الطبري ذلك في **تأريخه** إذ قال:

«حدثني محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا خالد بن حيان أبو يزيد الخراز، عن فرات بن سلمان، عن ميمون بن مهران، قال: رفع إلى عمر صك محله في شعبان، فقال عمر: أي شعبان الذي هو آت، أو الذي نحن فيه؟ قال: ثم قال لأصحاب رسول الله ﷺ: ضعوا للناس شيئا يعرفونه، فقال: بعضهم: اكتبوا على تأريخ الروم، فقيل: إنهم يكتبون من عهد ذي القرنين، فهذا يطول، وقال

بعضهم: اكتبوا على تأريخ الفرس، فقيل: إن الفرس كلما قام ملك طرح من كان قبله، فاجتمع رأيهم على أن ينظروا: كم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة؟ فوجدوه عشر سنين، فكتب التأريخ من هجرة رسول الله ﷺ.

حدثت عن أمية بن خالد وأبي داود الطيالسي، عن قرة بن خالد السدوسي، عن محمد بن سيرين قال: قام رجل إلى عمر بن الخطاب، فقال: أرخوا، فقال عمر: ما أرخوا؟ قال: شيء تفعله الأعاجم، يكتبون في شهر كذا من سنة كذا، فقال عمر بن الخطاب: حسن، فأرخوا فقالوا: من أي السنين نبدأ؟ قالوا: من مبعثه، وقالوا: من وفاته، ثم أجمعوا على الهجرة، ثم قالوا: فأي الشهور نبدأ؟ فقالوا: رمضان، ثم قالوا: المحرم، فهو منصرف الناس من حجهم، وهو شهر حرام، فأجمعوا على المحرم»[1].

(١) الطبري: **تأريخ الأمم والملوك**، ٢/٣٨٨ ـ ٣٨٩، دار التراث ـ بيروت، ط ٣: ١٣٨٧هـ.

وفي هذا اعتزاز بصلة المسلم بنبيه ﷺ، واعتداده بمواقفه، وحرص على حسن الانتماء إليه والارتباط به، فإن هذا الحدث العظيم الذي مر به الرسول الأعظم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأصحابه الأكرمون رضي الله عنهم يظل حاضرا في ذاكرة المسلم، وتظل مُثُلُه ماثلة بين يديه كلما حضره هذا التأريخ، وقد طبق ذلك في حياة المسلمين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها منذ عهد عمر رضي الله عنه إلى مضي ثلاثة عشر قرنا أو أكثر، إذ لم يوجد من بينهم من شذ عنه، هذا مع وجود تواريخ الأمم في عصرهم لكنهم لم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، وإنما اعتدوا بهذا التأريخ العظيم، وإعراض من أعرض عنه اليوم يعد خروجا عن الخطة التي رسموها بالإجماع، وتعد مشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين، فإن الله أمر بالكون معهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ومن أصدق من أولئك قيلا، أو أهدى منهم سبيلا؟ وهم الذين خلد الله ذكرهم في كتابه، وأحسن الثناء

عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهذا مما يدخل في السنة التي أمر الله تعالى باتباعها كما جاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، (٣٨٠٤/٧) برقم: (١٧٤١٦)، والدارمي في مسنده، (٢٢٨/١) برقم: (٩٦) (باب اتباع السنة)، وابن ماجه في سننه، (٢٨/١) برقم: (٤٢) (أبواب السنة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين)، وأبو داود في سننه، (٣٢٩/٤) برقم: (٤٦٠٧) =

وحسب المسلم أن يمضي المسلمون جميعا على هذا طيلة ثلاثة عشر قرنا أو أكثر من غير أن يلووا على شيء مما انصرف إليه الآخرون، وإنما حدثت الخلخلة في هذا عندما تمكن الاستعمار الغربي من سلبهم كل قوة حسية أو معنوية، فرزأهم في سياستهم وفي دينهم وفي فكرهم وأخلاقهم، وكان الغزو الفكري أخطر عليهم من الغزو السياسي، فإنه امتلك به ألبابهم، وتحكم به في عقولهم، وزين لهم منهجه، وحبب إليهم سيرته وأخلاقه، وزهدهم فيما هم أولى بأن يستمسكوا به، ويحرصوا عليه كما كان ذلك من أسلافهم، وأخذ يستدرجهم شيئا فشيئا، فبدأ أولا بضم تأريخه إلى تأريخهم، فجمعوا بين التأريخين معا

= (كتاب السنة، باب في لزوم السنة)، والترمذي في **جامعه**، (٤٠٨/٤) برقم: (٢٦٧٦) (أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع)، والحاكم في **مستدركه**، (٩٧/١) برقم: (٣٣١) (كتاب العلم، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)، والطبراني في **الكبير**، (٢٥٧/١٨) برقم: (٦٤٢) (باب العين، جبير بن نفير عن العرباض).

وسووا بينهما، ثم تجاوز ذلك إلى مرحلة أخرى، بحيث صار الاعتماد على التأريخ الأجنبي المستورد في المواعيد التي لا بد منها، وربط به العقود والإجارات، وناط به الأجور الشهرية ومواعيد السفر والانتقال من مكان إلى آخر، ودفع بهم إلى أن يؤرخوا به ما يولد لهم من مواليد، وما يمر بهم من أحداث، وما يعنيهم من قضايا، وكان بجانب ذلك التوقيت القمري والتأريخ الهجري غير منسيين على الإطلاق، فكانا يذكران على أنهما أمران ثانويان لا يضير نسيانهما ولا يغني شيئا ذكرهما، ولم يزل يملي عليهم إرادته، ويفرض عليهم منهجه حتى صاروا يؤرخون بالتوقيت والتأريخ الدخيلين لقاءاتهم من أجل شؤن دينهم، وأخذوا يحورون تراجم علمائهم التي كانت من قبل مبنية على التأريخ الهجري، فإذا بهم يستبدلون به التأريخ الميلادي وبشهوره القمرية الشهور الشمسية، ولم يزل تفكير الأمة حول ذلك يتزعزع ويتقهقر حتى نسيت في الغالب التأريخ

الإسلامي فصارت لا تذكر إلا التأريخ الأجنبي، وغدت توقت به كل شيء حتى بناء المساجد وافتتاحها، وطبع الكتب الإسلامية، وإقامة الحفلات الدينية، ومن كان يذكر منهم التأريخ الإسلامي فإنما يذكره على استحياء؛ لأنه يتصوره من مخلفات القرون الخالية، ومن مظاهر الرجعية والتخلف.

ولا تزال الأمة سائرة في هذه السبيل عن طواعية وإذعان؛ لأنها لم تعد تفكر في سبيل أخرى، إذ الغازي المتحكم في أمرها لم يدع لها حرية في التفكير، بل سلبها مقوماته، وزين لها منهاجه، وهذا يعني أن الأمر انقلب رأسا على عقب عما كان عليه وما يجب على الأمة أن تسير عليه، فإن الله تعالى أمرها بأن تأخذ بأسباب القوة وأن تتولى قيادة الإنسانية لا أن تنقاد لغيرها؛ لأن تخليها عن القيادة لا يفضي بالإنسانية إلا إلى الدمار، وكم تأخذنا الأريحية وتمتلكنا النشوة عندما نطلع على كلمات حماسية ألقاها إلينا بعض مفكرينا كقول شاعر الإسلام محمد إقبال:

«إن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته؛ لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين، ولأنه المسؤل عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه، ومقام الآمر الناهي. وإذا تنكر له الزمان، وعصاه المجتمع، وانحرف عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد»[1].

(١) أبو الحسن الندوي: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ص ١٥، وينظر؛ الندوي: **شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال (روائع إقبال)**، ص ٦٦ ـ ٦٨، دار الكتاب العربي ـ القاهرة، ط: ١٩٥١م.

ولكن ذلك لا يجعلنا نفكر في تطبيق هذا النهج والعمل به كأننا لسنا مطالبين بذلك، ولا مدعوين إلى ترجمة هذه المثل ترجمة عملية واقعية، وما ذلك إلا لفقداننا التصور الصحيح، وليس أضر على الأمة ولا أبلغ في تدميرها من فقدها التصور الصحيح في حياتها، وفي ارتباط عالم الشهادة بعالم الغيب؛ ولهذا كانت دعوة رسل الله تعالى جميعا قائمة على غرس العقيدة في نفوس الناس وترجمتها ترجمة واقعية في حياة المستجيب لدعوتهم، وهذا ما نجده في القرآن الكريم الذي صور لنا الإسلام الصحيح بأنه لا يكون إلا بالانقياد المطلق لله، وكون المحيا والممات له، والمظهر والمخبر دالين عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

مع التخلي عن كل موالاة لمن خرج عن منهج الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ

وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهذا يشمل موالاة كل من خرج عن سبيل الله وزاغ عن منهجه؛ لأن المحادة تصدق على كل إعراض عن منهج الله، ويدخل في ذلك تولي جميع الكفار، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، وفي هذا ما يدلنا على أن الكفار جميعا

لا يبغون من المسلم إلا الكفر، ومهما تودد إليهم بتقليدهم واتباعهم، فإن ذلك لا يرضيهم منه حتى يكفر كما كفروا، وذلك الذي ينص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ومن الواضح البين أن أولئك كل همهم أن يسلخوا المسلم من الإسلام، ولا يهمهم بعد ذلك أن يكون على أي ملة من ملل الكفر، كما قال زويمر القس المنصر المشهور في خطابه الذي انعقد بمدينة القدس في محرم ١٣٥٤هـ: «أيها الإخوان الأبطال، والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية، واستعمارهم لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدّس، لقد أدّيتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن أداء، ووفقتم لها أسمى توفيق. وإن كان ليخيل إليَّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه.

إنني أقركم على أنّ الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة:

- إما صغير لم يكن له من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام.
- أو رجلٌ مستخف بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتدّ به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش.
- وآخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية.

ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمّدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإنَّ في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في

حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه، وتهنئكم الدول المسيحية والمسيحيون جميعاً عليه كل التهنئة.

لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية، والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء، إنكم أعددتم له بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد.

إنكم أعددتم شباباً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء

النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همّه في دنياه إلا في الشهوات فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.

إنّ مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب»[1].

وكما حذرنا الله تعالى من موالاة مطلق الكفار، فقد خص أهل الكتاب بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، ثم أتبع ذلك بيان أن هذه الموالاة لا تنشأ إلا عن

(١) الميداني: **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها**، ص٩٩ ـ ١٠٠، دار القلم ـ دمشق، ط ٥: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، وينظر؛ عبد الله التل: **جذور البلاء**، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦، دار الإرشاد ـ بيروت، ط ١: ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

مرض نفساني، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ [المائدة: ٥٢]، وفي هذا السياق يأتي التحذير من الارتداد؛ لأن الموالاة هي سبيله المفضية إليه، إذ أتبع ذلك سبحانه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ثم بين تعالى ما يجب على المسلم أن يجعل ولاءه له وحده في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وأتبع ذلك بيان أن أولئك هم حزب الله الغالب وجنده المنصور، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ومن المعلوم أن الاستهانة بالجزئيات يفضي إلى الاستهانة بالكليات، وعدم المبالاة بالصغائر يؤدي

إلى عدم المبالاة بالكبائر، ودائما يبدأ انحراف السير من الخطوات الأولى، فالخطوة الأولى تتبعها خطوات حتى يصل السالك إلى مدى بعيد عن القصد، وانحناء رأس المسلم أمام عادات الآخرين يعني استخفافه بما عنده من المواريث الفكرية والسلوكية، فعليه أن يكون حذورا من ذلك.

وكم نتمنى من هذه الأمة أن تكون على بينة من هذا الأمر وبصيرة من عواقبه، فكم تَجَرَّعْتُ من حسرات، وكابدتُ من غصص بسبب ما أرى عليه أمة الإسلام من إضاعتها مفاهيم الدين وإهمالها ثوابت الإسلام، ومن المعلوم أن استخفافها بالجزئيات هو الذي أدى إلى استهانتها بالكليات، فلم تعد تغار على دينها ولا تغضب لأجل انتهاك حرماته، وما إهمالها لتأريخ مرتبط بنبيها ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وإيثارها تأريخا آخر، وزيغها عن توقيت دل على مشروعيته القرآن، وجعله من الدين القيم إلا سمة دالة على هذا.

على أن أهل العلم والفضل من المسلمين عندما بدأت آفة التأريخ الميلادي الأجنبي تسري في الأمة، ويتخذ بديلا عن التأريخ الهجري الإسلامي كانوا يستنكرون هذا، حتى أولئك الذين اضطروا إلى العيش فترة من الوقت في أوربا كما كان ذلك من المجاهد البطل الشيخ سليمان باشا الباروني، الذي نفي من قبل الاستعمار إلى فرنسا، وبقي في مرسيليا برهة من الزمن، فقد عجب من صديقه الأستاذ أبي الحسن محمد علي الطاهر صاحب صحيفة (الشورى) الشهيرة، عندما وجه إليه رسالة مؤرخة بالتأريخ الأجنبي الميلادي، فرد عليه برسالة أرخها ٣٠ / رمضان/١٣٤٦هـ جاء فيها ما نصه:

«تلقيت كتابك الكريم المؤرخ بالتأريخ الإفرنجي لا غير، وأنت العربي الداعي إلى إحياء العرب والعربية وإعلاء شأنهما، فاستغربت ذلك جدا، ولم أجد لك عذرا، وإني أرى من مدة أن الاسترسال في هذه الخطة وتعميمها كما هو مشاهد ضربة قاسية على

التأريخ الهجري العربي، فلا غرابة حينئذ إذا سئل واحد من تلامذة المدارس عن الوقت الذي كان عيسى عليه السلام موجودا فيه أجابه بكل سرعة بالتأريخ الإفرنجي، وإذا سئل عن وقت وجود محمد ﷺ تردد وتلعثم، وإذا شئت تحقيق كلامي هذا فجرِّب، فعلى هذا السير سيصبح وقت وجود محمد ﷺ مجهولا عند الناشئين، وفي ذلك من ضعف العاطفة القومية والدينية ما لا يحتاج إلى برهان.

سمعت ذات مرة من عامي أن محمدا ﷺ كان قبل الأنبياء كلهم لأنه سيدهم، فتأسفت وأفهمته الحقيقة، فخجل وتعجب.

ولما كنت في أوربا ممنوعا من دخول مستعمراتها الإسلامية كلها كنت أكتب إلى بعض أصدقائي في البلاد الشرقية كتبا مؤرخة بالتأريخ العربي فقط، فتأتي كتبهم مؤرخة بالإفرنجي وحده! فنبهتهم إلى ذلك فتنبه البعض بعد ممارسة، ولم يفد في الباقين حتى أن أحدهم كتب إليّ كتابا صدره بالتأريخ الإفرنجي،

وكان تذكر بعد ذلك فكتب بعده هكذا (الموافق لشهر...)، ولم يجد ما يكتبه فتركه ناقصا، فعلمت أنه كان بعيدا عن منزله وعن الأسواق أو كان البريد على جناح السفر، وإلا لأمكنه مراجعة بعض التقاويم، فالمرجو التيقظ إلى المسألة والتنبيه إليها في الشورى، فإنها من الأهمية بمكان».

وعلق على ذلك صاحب الشورى في صحيفته بقوله: «هذا حق لا نجادل فيه، ولكن ماذا نصنع ونحن نرى التأريخ الغربي هو المستعمل في الدولة المصرية، دع الحكومات في سورية وفلسطين والعراق وشرق الأردن ولبنان وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس الغرب؟!

انتقاد عطوفة الباشا في محله، ولكن الأمر الواقع هو ما ذكرناه، فالمسألة إذن ليست من السهولة بالمكان الذي يظنه الأستاذ، فكيف العمل؟!»[1].

(١) مجلة الشورى، العدد ١٨١، (٢٧ ذو القعدة ١٣٤٦هـ/ ١٧ مايو ١٩٢٨م)، ص ٢.

وإنما استثار الباشا الباروني في نفس صديقه صاحب الشورى، وفي نفوس القراء الآخرين النخوة العربية؛ لأن معظم العرب في ذلك الوقت يولون قضية قوميتهم عناية بالغة في مقابل ما كان عليه الترك من الاهتمام بالقومية الطورانية، ونحن نحمد الله تعالى على انتهاء هذه النعرات القومية التي مزقت أمة الإسلام ومكنت منها عدوها، وهي كلها وليدة مؤامرات أعداء الأمة فالقومية الطورانية هي وليدة فكر يهود الدونمة، والقومية العربية نشأت على أيدي نصارى لبنان، ومحضنها الجامعة الأمريكية التي كانت آنذاك تعرف بالكنيسة البروتستانتية.

ونحن نداؤنا الآن إلى الأمة الإسلامية جميعا من غير تمييز بين عربهم وعجمهم، فجميعنا ننتمي إلى القرآن وإلى هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وكل منا هو في الحب قيس وليلاه التي يهيم بها هي ملته الإسلامية، التي هو أشد غيرة عليها من الأسد على

عرينه، وحسب الأمة الإسلامية أن يكون التوقيت القمري هو المشروع في القرآن بالنص الصريح، والتقويم الهجري به الاعتزاز بالانتماء إلى أشرف من شرف به الوجود، وأكرم من سعدت به الحياة، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فهو مرتبط بهجرته التي محت النعرات الجاهلية وتفاخرهم بالآباء، وأتت على التحزبات القبلية التي مزقت العرب كل ممزق، فوحدت بين المهاجرين والأنصار، وألحقت بهم الذين اتبعوهم بإحسان، كما وحدت بين العرب والعجم وصيرتهم جميعا أمة واحدة، يجمعهم خلوص عبوديتهم لله وحده وإخلاصهم عبادتهم لعزه وجلاله، فأي مسلم لا يهمه هذا الانتماء الكريم، ولا يبالي بهذه النسبة الشريفة؟!

ومن هو أولى بالارتباط بذكرياته والاعتزاز به وبمواقفه من رسول الله ﷺ، النبي الذي أجمع العقلاء مسلمهم وكافرهم بأنه أعظم البشر، حتى

عتاة الملاحدة منهم كشبلي شميل[1] الذي قال:

دع مــن محمّد في ســدى قرآنه
ما قــد نحــاه للحمــة الغايات
إنــي وإن أك قد كفــرت بدينه
هــل أكفــرنّ بمحكــم الآيات
أو ما حوت في ناصع الألفاظ من
حكــم روادع للهــوى وعظات
وشــرائع لو أنهــم عقلــوا بها
مــا قيــدوا العمــران بالعادات
نعــم المدبّــر والحكيــم وإنّه
ربّ الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجى رجل السياسة والدها
بطل حليف النصر في الغارات

(١) هو ملحد من أصل كاثوليكي وهو أحــد رادة الإلحاد في البلاد العربية في العصر الحديث.

ببلاغــة القرآن قد غلــب النهى
وبســيفه أنحى علــى الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى
من ســابق أو حاضــر أو آت[1]

وقــول الشــاعر النصرانــي ميخائيل ويــردي في قصيدته التي خصها بالمدائح النبوية، وهي كما يأتي:

أنوار هادي الورى في كعبة الحرم
فاضت على ذكر جيرانٍ بذي سلم
أبنــاء بابــل أفنتهــم مآثمهــا
وآل فرعون ما شادوا سوى الهرم

(١) رشــيد رضا: **مجلة المنــار**، (العدد الصادر يــوم الثلاثاء غرة محرم/ ١٣٢٦هـ والموافق ٣/ مارس/١٩٠٨م)، (مج ١١/١٠ ـ ١١)، وأيضًا؛ (العدد الصادر بتاريــخ ٢٩/ جمادى الآخرة/١٣٣٥هـ، والموافــق ١٨/ أبريــل/١٩١٧م)، (مج ١٩/٦٢٧ ـ ٦٢٨)، وينظر؛ كذلك؛ **الوحــي المحمــدي**، ص٩٦، دار الكتــب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

وتدمــرٌ ومغانيها غــدت خرباً
والذّكر بالخير غير الذّكر بالإرم
يا ليت من شــيدوها للفناء رأوا
عقبى المباني فأغنتهم عن النّدم
زالــوا وزالت مع الآثــار عزتهم
فإن تجادل سل التاريخ واحتكم!
والمصطفى خالدٌ في الناس ما بزغت
أمّ النّجــوم وممدوحٌ بــكلّ فم
يا ليت أحلام عمري لم تضع بدداً
بحبّ قصـــر من الأوهام منهدم
وليتني لم أهــم إلّا بمن عرفوا
برقّــة القلب لا بالظّلــم والعقم
فكم حبيــبٍ إذا خالفت فكرته
جازاك بالصدّ قبل البحث في التهم
فاربأ بنفســك أن تنهار من ألمٍ
واربأ بحسنك أن يربَدّ من سأم

واجعل هواك رسول الله تلق به
يوم الحساب شفيعًا فائق الكرم
هذا رسول الهدى فارشف على ظمأ
من ورده العذب عطفاً شاق كلّ ظمي
كأنّما قلبه ينبوع مرحمةٍ
مستبشرٌ فرح جذلان بالنّسم
يا أيّها المصطفى الميمون طالعه
قد أطلع الله منك النور للظّلم
في دينك السمح لا جنسٌ ولا وطنٌ
فكل فردٍ أخٌ يشدو على علم
وحّدت ربّك لم تشرك به أحداً
ولست تسجد بالإغراء للصّنم
وكيف تشرك بالرّحمن آلهةً
لا يستطيعون ردّ الرّوح للرّمم
عاديت أهلك في تحطيم بدعتهم
من ينصر الله بالأصنام يصطدم

كأنّ ربّــك لــم يخلــق لدولته
سواك من مرسلٍ بالحقّ معتصم
أدّى الرّسالة حتّى ضجّ من سأمٍ
أجناد إبليس واشتدّ الأسى بهم
كأنّ أحمــد بالأصفــاد كبّلهــم
فارتدّ جيشــهم المقهور بالسّدم
شــرعٌ على أقوم الأركان أسّسه
للعالميــن نبــيٌّ طاهر الشّــيم
غذّى عقول الورى حتّى أتاح لهم
عيش النّعيم ونقّاهــم من الإثم
كأنّما الشّرع جزءٌ من نفوسهم
فإن هم وعدوا استغنوا عن القسم
يا أزهد النّاس في الدّنيا وفي يده
خزائن الملك والأنصار كالخدم
لو يتبع الخلق ما خلّدت من سنن
لم يفتك الجهل والإعواز بالأمم

قد كنت أرأف بالمسكين من دولٍ
رأت بأمثاله سـربـاً مـن الغنم
أحببت دينك لمّا قلت أكرمكم
أتقاكم وتركـت الحُكْم للحَكَم
وقلت إني هـدىً للعالمين ولم
تلجأ إلى العنف بل أقنعت بالكلم

وقال:

خاطبت كل ذكيّ حسب قدرته
ولم تكن بغبـيّ القـوم بالبرم
عززت كلّ فتاةٍ حين صحت بنا
ما أولد العزّ غير السـادة الحشم
فأنـت أول مـن نـادى بمأثرةٍ
يظنها الغرب مـن آلاء بعضهم
كأنمـا النـاس آلاتٌ مبعثـرةٌ
أخرجت منها جميل اللحن والنّظم

صلى الإله على ذكراك ممتدحاً
حتى تؤمّ صلاة البعث بالأمم[1]

ومثل ذلك ما قاله كثير من الكتاب غير المسلمين في الشرق والغرب من الثناء عليه أفضل الصلاة والسلام، والاعتراف بقدره الجليل ومقامه العظيم[2]، دع ما قاله المسلمون غير العرب، فكم هاموا بحبه عليه الصلاة والسلام وتغنوا بأمجاده[3].

هذا؛ وكم عاكس العلماء الراسخون هذا التيار العرم بإصرارهم على التأريخ الهجري في وقت كان فيه من حولهم يتناسون هذا التأريخ، فقد اطلعت على رسائل شيخنا المصلح الكبير أبي

(١) ميخائيل ويردي: **زهر الربى**، قصيدة بعنوان (وحي البردة)، ص ٣٥ ـ ٤٣، المطبعة الهاشمية ـ دمشق، ط: ١٩٥٤م.

(٢) ينظر في هذا للباحث؛ **برهان الحق**، ٣٧١/١١ ـ ٣٩٤، دار الكلمة الطيبة ـ مسقط، ط ١: ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

(٣) ينظر؛ أبو الحسن الندوي: **الطريق إلى المدينة**، ص ٩٧ ـ ١٣٠، دار القلم ـ دمشق، ط ٤: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

إسحاق أطفيش رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي حررها من مصر، في وقت كان التأريخ الشايع في أرض الكنانة هو التأريخ الميلادي؛ بسبب ما كان للغزو الأجنبي من تأثير على العقلية الإسلامية، ولكن شيخنا لم يساير الركب حيث أم، وإنما كان يحرص على أن يؤرخ بالتأريخ الهجري وحده، ويعتمد على الشهور القمرية وحدها، وقد تلقيت بنفسي منه رسالة تضمنت جوابا على أسئلة وجهتها إليه أرخ تحريرها في شهر صفر من عام ١٣٨٠هـ، ولكن لطول العهد نسيت اليوم الذي حررها فيه وأظنه اليوم الثامن عشر منه، ثم وافتني منه رسالة من أرض الكنانة حررها في ١٧من شهر شعبان/ ١٣٨١هـ، وهكذا كان شأن المصلحين الذين يحرصون على استقلال الأمة، وعدم انسياقها مع القافلة البشرية التي أضاعت الطريق، وفقدت الدليل بزيغها عن منهاج الرشد حيث تسير، وترى تحذير الباروني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عاقبة هذا الأمر كان في

بدايته منذ نحو قرن من الزمن، فكيف لو أدرك ما أدركناه وشاهد ما شاهدناه بأبصارنا ووعته أسماعنا، وعانى ما عانيناه، ورأى إلى أي حضيض سقطت هذه الأمة؟! لا شك أنه كان سيصعق من ذلك، ويذوب حسرة، ويتقطع ألما.

على أن الكارثة العظمى أن يجتاح هذا التيار الفئة التي كانت تعلق عليها الآمال، بأن يكون على أيديها إنقاذ هذه الأمة وخلاصها من هذه الورطة، من ذوي الرسوخ في علوم الدين والفطنة في إدراك عواقب الأمور والحذر من سوء مآلاتها، ولكن بدل أن يكون هؤلاء قدوة للعامة في الإنقاذ والخلاص من مخاطر هذا الانحراف، أصبحوا هم قادة لهم يسيرون بهم في هذه المهامه المطموسة الصوى المقفرة المعالم، التي لا يجد سالكها سبيلا إلى معرفة كيف يتوصل إلى النجاة، ويتوقى بها من شرور الانحراف، فعلماء الدين أنفسهم مندفعون بحماس في هذا التيار إلى نهاية لا يعلمها إلا الله سبحانه، فإذا كان في هذا العصر ـ مع

بقاء ثلة من أهل العلم وبقية من أهل الفضل ـ تضيع حقيقة هذا الأمر فلا يدركها الخاصة فضلا عن العامة فكيف بالعصور الآتية؟! وكل عصر يزداد فيه الإيغال في البعد عن الحق، والزيغ عن الرشد، وضياع الحقيقة عن الناس جميعا.

النذر التي تلوح من الإشارات الحمراء في هذا الأمر

كم هي النذر الدالة على خطورة العواقب من هذا الأمر! فقد دق ناقوس الخطر، ولكن لم ينتبه له أحد، فلم يعره بالا خامل ولا نبيه؛ لأن الكل غارقون في الحب الأعمى لتقليد الأجنبي والتخلي عن مواريثهم، لأنهم أصبحوا يتصورون أن العزة في هذا التقليد وهذه التبعية، كأنهم يرون أن ما نبه له القرآن، ومضى عليه الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وأجمع عليه أصحابه رضي الله عنهم، ودرجت عليه الأمة قرنا بعد قرن لم يعد صالحا لهذا العصر، عصر العلم والتنوير، وإنما كان ذلك صالحا في عصر التخلف والظلام، ولذلك عدلوا عما كان قائما محافظا عليه من تأريخ تراجم الرجال، وذكر أحداث الأمة بالتأريخ الإسلامي الأصيل، فاستبدلوا به التأريخ الأجنبي الدخيل، فضلا عما يحررونه بأقلامهم من تراجم علماء عصرهم، ولو

أخذت في ذكر النذر التي أحاطت بهـذا الأمر لطال البيان وسئم القارئ، وإنما أقتصر على ذكر بعضها:

١ ـ قبل ما يقرب من نصف قرن من الزمن حضرت في أحد الأقطار الإسـلامية ومعي بعـض الإخوان، وقابلنا هنالك أحد أقطاب العلم وركائز الإصلاح في المجتمع، فسأل رفيقي: متى كانت مغادرته لدارهم؟ لأنه أقام بينهم فترة من الزمن طالبا للعلم، وعندما رد عليـه بالتأريـخ الهجري، قال لـه: حدثنـا بالتأريخ الميـلادي؛ لأنه أقرب إلـى تصورنـا، وإذا كان هذا يحصل من كبار حملة العلم ورواد الإصلاح فما بالك بمن دونهم؟!

٢ ـ كانت بنت لي تدرس فـي المرحلة الابتدائية، وكانت عندمـا تكتب في السـبورة تحرص على ذكر التأريخ الهجري أولا، فكانت مدرسـتها تزجرها عن ذلك، وتقول لها: لا داعي إلى ذكر هذا التأريخ، لأن التأريخ المعول عليه غيره، وكان هذا قبل صدور القرار من وزارة التربية باعتماد التأريخين معا في المدارس،

مع أن هذه المدرسة مسلمة، وهي من دولة عربية ذات عراقة في علوم الدين، على أنه من المعلوم أن رسالة المدرس هي وصل الطالب بالقيم، وجعله يعتز بموارثه الفكرية والأدبية.

٣ ـ أتاني سائل عربي مسلم وقال لي: في أي شهر يكون الحج؟ لأنني أريد أن أحج هذا العام، فأجبته: بأن الله تعالى قال: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فمتى أحرم المسلم بالحج في هذه الأشهر فإحرامه صحيح، فرد علي: ولكن متى تكون هذه الأشهر؟ فرددت عليه: نحن الآن في شهر شعبان، وسيأتي من بعده شهر رمضان الذي نصومه ـ إن شاء الله ـ، وبعده شهر شوال فما بعده، وبينت له أن شوال يليه ذو القعدة ومن بعده ذو الحجة، وبداية مناسك الحج من اليوم الثامن منه، ففيه الدفع إلى منى، وفي اليوم التاسع يكون الوقوف بعرفات، ثم تأتي مناسك الحج بعده تباعا، فرد علي: ولكن في أي شهر يكون ذلك؟ مع أن الرجل مسلم،

وهو يحرص على أداء فريضة الحج، وهو من بلد عربي مسلم عريق في حمل رسالة العلم وبثها في جميع أنحاء العالم، وفيه مؤسسة إسلامية كبرى استمرت على حمل هذه الرسالة أكثر من ألف عام، وإذا كان مثل هذا تخفى عليه الأشهر الإسلامية، ولا يكاد يتصورها مع ترتب جميع العبادات عليها، فكيف بغيره ممن لا يحسب للدين حسابا، ولا يعنيه الاهتمام بأي شيء منه؟! ولعمري إنه لدليل واضح على أن الاستعمار نجح في تغييب هذه الأمة عن تصور معالم دينها وأعلام هداها، وتمكن من اقتيادها إلى هاوية من ضلال الفكر، لا يُدرَك لها قعر، والعياذ بالله.

وذلك أقوى داع ـ لو وعت الأمة ـ إلى أن تظافر جهودها لإنقاذ نفسها من هذه الورطة، وتحريرها من هذه التبعية، ومواصلة جهدها وجهادها حتى تعود إلى ما كانت عليه في سالف عهدها، ويعود إليها سابق مجدها.

إني تذكَّــرتُ والذكــرى مؤرِّقة
مجــدًا تليــدًا بأيدينــا أضعناه
ويحَ العُروبة كان الكون مسـرحَها
فأصبَحــت تَتوارى فــي زواياه
أنى اتَّجهتَ إلى الإسلام في بلد
تجدْه كالطيــر مقصوصًا جناحاه
كم صرَّفتْنا يــدٌ كنّا نُصــرِّفها
وبــات يَحكُمنا شــعب ملَكْناه
هل تطلبون مِن المختار مُعجِزةً
يَكفيه شعب مِن الأجداث أحياه
من وحد العرب حتى صار واترهم
إذا رأى ولــد الموتــور آخــاه
وكيف ساس رعاةُ الشاء مملكةً
ما ساسَها قيصــرٌ مِن قبْل أو شاه
ورحَّب الناس بالإسلام حين رأوا
أن الإخــاء وأن العــدل مَغْــزاه

يا مَن رأى عُمَرًا تكســوه بردتُه
والزيــت أدْمٌ له والكــوخ مأواه
يهتز كســرى على كرسيِّه فرَقًا
مِن بأسِــه وملوك الروم تخشاه
هي الحنيفــة عيــن الله تَكلؤها
فكلما حاوَلوا تشــويهَها شاهوا
استرشد الغرب بالماضي فأرشده
ونحــن كان لنــا ماضٍ نَســيناه
إنا مشينا وراء الغرب نَقبس من
ضيــائه، فأصابَتْــنا شظاياه
.....
.....
لاهمَّ قد أصبحت أهواؤنا شِيَعًا
فامنُــنْ علينا براعٍ أنــت تَرضاه
راعٍ يعيد إلى الإســلام ســيرته
يَرعــى بنيــه وعيــن الله ترعاه

٤ ـ حضرت اجتماعا دينيا في بلد إسلامي عريق، نكب في مرحلة من الزمن بقيادة انحرفت به عن الطريق السوي، وأتت على ما كان له من أمجاد، ومما عجبت منه أن أهل البلد ذكروا بأنهم أحيوا ذكرى لبداية نزول القرآن على قلب النبي ﷺ، فذكروا أنهم احتفلوا بمناسبة مرور ألف وأربعمئة عام على تنزل القرآن، وقد عجبنا من ذلك؛ لأن المدة التي مرت على بداية نزوله هي أكثر من ذلك، فتبين من بعد أنهم بنوا هذا على التأريخ الميلادي، فهالنا أن يكون هذا في مثل ذلك البلد الذي مرت عليه أمجاد عظمى، عندما كان يقود دفة حياة الأمة الإسلامية، وهذا لا يعود إلا إلى غياب الحقيقة عن أهله، والله المستعان.

٥ ـ كنت في لجنة قضائية تنظر في القضايا المتنازع فيها، وما صدر فيها من أحكام بعد اجتيازها المرحلة الابتدائية ومرحلة الاستئناف، وعرضت على اللجنة قضية بين رجل يملك نصيبا وافرا من مياه فلج ـ وهو

عبارة عن قناة مائية تشق في باطن الأرض لتسقي النخيل والأشجار والزروع ـ وبين شركائه في ذلك الفلج الذين كانت حصصهم منه متدنية بالنظر إلى وفرة ما كان يملكه هو، وقد جرت العادة في السنين السابقة أن يكون تقسيم المياه ليلا بحسب أحوال النجوم في طلوعها أو غروبها، ونهارا بحسب دلالة ظل الشمس الذي كانوا يستدلون عليه بعمود خشبي يسمونه (محاضرة)، ولهم في معرفة الأوقات بحسب ما ينتهي إليه ظله علامات يستدلون بها في قسمة المياه على الشركاء، فيميزون قدر ما لكل شريك من الماء بحسب وقته المحدد، وكان هؤلاء الشركاء يرغبون في استمرار التقسيم بحسب العادة السابقة من الاعتبار بأحوال النجوم طلوعا وغروبا بالليل، وبحسب دلالة ظل العمود المنصوب نهارا، بينما شريكهم الذي يملك النصيب الأوفى من المياه لكثرة ما يحتاج إليه من سقي مزارعه كان يرغب في الانتقال من الاعتماد على ظل (المحاضرة) نهارا، وعلى

اختلاف أحوال النجوم ليلا إلى الاعتماد الكلي على الساعة؛ لأنها أضمن في الدلالة على القسمة العادلة، فهي لا يعتريها ما يعطلها عن الدلالة، بينما النجوم قد تخفى عندما تحجبها الغيوم، وكذلك ظل الشمس يتعذر ضبطه عندما يواريها الغيم وهو كثيرا ما يحدث.

على أن الجيل الحاضر هو بعيد عن معرفة هذه الدقائق؛ لأنه لم يعتدها كما اعتادها سلفه، وبجانب ذلك فإن السقي يقوم به عمال وافدون من خارج البلاد، ما لهم من علاقة بما اصطلح عليه الناس في هذا المجتمع، ولكن السواد الأعظم كان على خلاف رأيه ولا يريد الخروج عما اعتيد من قبل، فسألتهم: هل تسقون بأنفسكم؟ فردوا علي: بأن العمال هم الذين يسقون، وسألتهم: هل هم من جنسكم أو من الأجناس الأخرى؟ فردوا علي: بأنهم وفدوا من بلاد أخرى، فسألتهم عن تأريخ ذلك اليوم الذي هم فيه، ومن أي شهر هو؟ فردوا علي بالتوقيت الشايع وهو التوقيت الدخيل، فسألتهم: ألا يوجد فيكم من

يستحضر الآن توقيتا آخر؟ فردوا جميعا بالنفي، فقلت لهم: ما أعجب أمركم! تريدون المحافظة على عادات آبائكم من قبل في أمر يسير ـ وهو قسمة مياه الفلج ـ على أنها من السهل أن تكون مضبوطة بالساعات التي هي أضمن لإيتاء كل ذي حق حقه غير مبخوس ولا منقوص، عندما يقيد نصيب كل أحد منكم على مدار العام بالدقائق بل حتى بالثواني، كل ذلك لأجل الحمية من أجل عادة ورثتموها من آبائكم، وأنتم أضعتم أغلى شيء في حياتكم وهو التوقيت بالشهور القمرية والسنين الهجرية، مع أن عباداتكم مرهونة بذلك، فعلى اعتماد ذلك يكون صيامكم وحجكم وزكاتكم، وعدد نسائكم وتحديد مدة التربص في الإيلاء منهن إلى غير ذلك من أحكام دينكم، وهو التوقيت المعتد به عند الله، شرعه يوم خلق السماوات والأرض، وأنزله في كتابه، ومضى عليه رسوله ﷺ، بل مضى عليه رسله عليهم أفضل السلام جميعا، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، وجميع التابعين لهم بإحسان

قرنا بعد قرن، على أنكم بأنفسكم ما كنتم تتصورون توقيتا آخر ولا تأريخا غيره، حتى في زمن قريب لا يتجاوز نحو عقدين من السنين قبل الآن، وإنما استسلمتم للغزو الأجنبي فأضعتم كل شيء، فهل ترون أن محافظتكم إنما يجب أن تكون على الاعتداد بظل (المحاضرة)، وتوقيت طلوع النجوم وغروبها فحسب؟! وإن أضعتم ما هو أهم من ذلك وهو ما يرتبط به أمر دينكم ودنياكم.

٦ ـ أخيرا وليس آخرا وصلتني رسالة من جماعة من الإخوة هم من أكثر الناس حرصا على القرآن، فهو هجِّيراهم[١] في آناء ليلهم وأطراف نهارهم، يشقون بتلاوتهم له سدفة[٢] السحر وغسق العشي، فيؤنسون بها وحشة الليل البهيم ويهدؤون بها من روعه، ويقلدونها جيد نهارهم في بهائه وإشراقه فيزداد جمالا

(١) هِجِّيراهم: دأبهم وشأنهم.
(٢) سدفة: ظلمة.

وضياء، مع حرصهم على اتباع هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وربوا على ذلك صغارهم فكان طفلهم أول ما يبدأ به حفظ كتاب الله تعالى، وتقسيم تلاوته آناء الليل وأطراف النهار بحسب برنامج دقيق أعد لذلك، وقد أرسلوا إلي مع رسالتهم وثيقة لاتفاق وقع بينهم يجمع بين فئاتهم على قضية دينية مهمة تستتبع مصالح دنياهم، وأرادوا مني أن أمضي هذا الاتفاق وأن أشد على أيديهم فيه، فسرني ذلك منهم جدا، إذ كنت أتمنى ذلك منهم منذ عقود من السنين، فتسارعت إلى الإمضاء على الاتفاقية، ولكنني أحسست بأسى شديد، وتجرعت مرارة بالغة بسبب أنهم غيبوا عن وثيقتهم ذكر التوقيت القمري والتأريخ الهجري، واقتصروا على التأريخ الأجنبي الدخيل، وقد عجبت كيف يكون هذا منهم مع عكوفهم على القرآن، أولم تكفهم آياته دليلا على أن الصواب في غير ذلك؟ فحررت إليهم عتابا بالغا أفضيت فيه بما أحسه بسبب ذلك من آلام تزعجني، وأفضت فيه في

تحذيرهم من عواقب هذا الأمر الخطيرة التي تنتظر أجيالهم المقبلة إن لم يتداركوا حالهم، ويتسارعوا إلى التحرر من هذه التبعية لغير المسلمين، وينفكوا من هذه العادة السيئة التي رسخت في الأمة رسوخ الأطواد في الأرض الحجرية الصلبة، وقد تلقيت منهم بحمد الله ما يدل على أنهم فهموا الحقيقة التي كانت غائبة عنهم، وتصوروا ما أهدف إليه، وشاركوني الإحساس الذي أحسسته، ووعدوني أن ينتبهوا بأنفسهم، وينبهوا على ذلك أولادهم؛ ليتشاركوا في الحرص على ما كان عليه سلفهم الصالح، والحمد لله.

هذه صور لما سنح للخاطر ذكره من هذه النذر، من غير تفتيش عما تختزنه الذاكرة منها في زواياها، وهي آخذة في الزيادة يوما بعد يوم، بل ساعة إثر ساعة، وذلك كافٍ لإيقاظ ضمير الأمة لاستدراك هذا الأمر قبل فوات الأوان، وقبل أن يأتي زمان تغيب عن أذهان الأمة فيه مواقيت جميع عباداتها؛ لعسر استحضارها بما يغلب عليها من إعمال عقول

مستوردة، بدلا من عقول أمة الإسلام المعنية باستحضار العبادات، ومعرفة مواقيتها، فالمقام جد والأمر خطير، والزحف مقبل من كل جانب، والنذر تتوالى.

ناهيكم أن الأمر بلغ الآن أن مواقيت العبادات ومواسمها يؤرخ لها بالتأريخ الأجنبي، فعندما يضطرون إلى ذكر شهر رمضان مثلا يقولون: (رمضان عام ٢٠٢٠) أو نحو ذلك، ومثل ذلك الحج وسائر مواقيت العبادات، وإذا كان هذا واقعا في عصرنا ـ وهو مما يصدر حتى من حملة الشريعة المهتمين بالقضايا الدينية ـ فما بالك بما يخبئه الدهر من عجائبه؟!

على أن غياب الحقيقة عن أفهام الناس، وعدم اكتراث الأمة بخطورة هذا الأمر، شجع أعداء الإسلام الذين يتربصون به الدوائر على دفع أوليائهم الذين غرسوهم بيننا ـ وهم من أبناء جلدتنا ويتحدثون بألسنتنا، وينتسبون إلى ملتنا، ويتظاهرون

بالغيرة عليها، ويَتَسَمَّون بأقدس وأعظم أسمائنا ـ إلى بث سمومهم في المجتمعات الإسلامية بما ينشرونه بين الناس من الإفك البين، والاجتراء على قطع ما أمر الله به أن يوصل من الدين، ونبذ ما أمر الله بالمحافظة عليه من ثوابته، التي لا تؤدي الاستهانة بها إلا إلى نقض بنيانه المتين وهد أركانه الراسخة، مع أن كثيرا من هؤلاء هم كما قال الله تعالى في المنافقين الذين يسعون باستمرار في فتنة الناس عن دينهم: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ [التوبة: ٤٧]، فكم من مغرور بهم معجب بذلاقة قولهم ومأخوذ بخلابة أخذهم وعطائهم للأمور، يحسبهم مجددين ويعدهم متنورين ومنورين، وقد انتهوا إلى محاولة العبث بفرائض العبادات وتحريفها عما شرعه الله.

وآخر ما وصل إليّ من ضلال هؤلاء وإضلالهم ما زعمه أحد الأفاكين الضالين المضلين في حوار معه أجرته إحدى الفضائيات التونسية، شاهدته بنفسي

وسمعت ما قاله بأذني[1]، وخلاصته أن المسلمين منذ أربعة عشر قرنا واقعون في خطأ في صيامهم وحجهم وعباداتهم؛ لأن الصيام ليس هو في شهر رمضان، وإنما هو في شهر (ديسمبر) الثاني عشر من الشهور الشمسية التي هي مدار التأريخ الميلادي؛ لأنه الوقت الذي صامه رسول الله ﷺ كما ادعى، وكذلك موسم الحج لا يخرج عن فصل الربيع الذي كان فيه ـ حسب زعمه ـ حج النبي عليه الصلاة والسلام، ومعنى ذلك أن توقيت العبادات جميعا إنما هو بالشهور الشمسية وفي فصول معينة من العام، وليس هو في مواقيته المحددة في كتاب الله تعالى بحسب ما دل عليه القرآن، وما دلت عليه السنة القولية والعملية الثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام بإجماع الأمة، ويا لها من ثورة حمراء ملتهبة على ديننا الحنيف، وطعن في القرآن الكريم الذي ينادي بأن الأهلة هي أساس التوقيت في العبادات المشروعة

(١) قال ذلك في حوار في برنامج (الدوامة +) بقناة (IFMTV)، ينظر: https: //www.youtube.com/watch?v=6hmWumq3QNA

وأعمال الناس، وكفى دليلا قاطعا على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله في الصيام: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وأحاديث النبي ﷺ التي أجمعت الأمة على صحتها وعلى التعويل عليها في هذا الجانب كأحاديث أمره ﷺ بالصيام والإفطار بحسب رؤية الهلال كما تقدم، وقد علمت مما تقدم أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون كل من الحج والصيام في ميقات قمري؛ لأجل أن تكون هذه العبادات تدور مع الفصول جميعا ولا تنحصر في بعضها، فكل من الصيام والحج يكون تارة في الشتاء وأخرى في الصيف، وتارة في الربيع وأخرى في الخريف، حتى لا يخلو فصل من أداء هذه العبادات فيه، وهذا ما نبه عليه صاحب المنار كما تقدم في كلامه الذي نقلناه، وهب أن النبي ﷺ كان حجه في فصل الربيع، وأنه كان صيامه في بعض السنين

صادف الشهر الثاني عشر إلا أن ذلك لا يعني أن هذه العبادات مرتبطة بالشهور الشمسية أو الفصول السنوية، وإنما هي مشروعة بالنص الصريح في مواقيتها بحسب الأشهر القمرية، ولا عبرة بكونها في أي فصل من الفصول؛ لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن تدور مع جميع الفصول حتى تكون جميعا معمورة بها.

وليت شعري هل كان لمثل هذا الأفاك الضليل أن يجد ثغرة لمثل هذه الفرية، فيصوب سهمها المسموم إلى العبادات الثوابت في الإسلام، لو كانت الأمة مضت على ما مضى عليه سلفها من التعويل على التوقيت والتأريخ الإسلاميين وحدهما، ورفض كل توقيت دخيل وتأريخ دخيل، ونشَّأت على ذلك جميع أجيالها في حاضر الزمن كما كان عليه أمرها في سابقه؟ أوليست هذه الاستهانة بهذا الواجب وعدم المبالاة بعدم المحافظة عليه هي التي فتحت هذه الثغرات للدجالين الأفاكين، الذين ينفذون في الأمة

مخططا مرسوما من قبل من وراءهم من مؤسسات الإلحاد العالمي، التي لا تنفك عن رسم هذه الخطط وتنفيذها في الأمة بأساليبها وحيلها، والأمة في غفلة عنها؟ وترى كيف كانت الخطوات إلى ذلك بهدوء بالغ واستمرارها في التقدم مرحلة بعد مرحلة حتى وصلت إلى هذا الإفك العظيم، أولا يدعو هذا الأمر إلى يقظة عامة تشترك فيها الأمة جميعا، وإلى نهضة سريعة وثابة إلى محاسبة نفسها على إهمالها الواجب عليها من الذب عن هذه المقدسات الفكرية، وقطع كل سبيل ووسيلة يؤديان إليها، والتخلص من آثار ذلك الإهمال بالمحافظة على ما هو إسلامي، وترك كل دخيل ولو في جزئيات أمور الدنيا فضلا عن كليات أمور الدين؟!

لعمري إن لم تسارع الأمة إلى هذه الوثبة، وتبادر إلى هذا الواجب، وتحشد لذلك جميع جموعها، وتجند لذلك صغارها وكبارها، ورجالها ونساءها، وتسخر لذلك كل ما أوتيت من قوة

وثروة؛ أصبحت حرية أن تنعى في المحافل وتندب في المآتم، لأنها بهذا تكون قد بلغت من الإهمال أقصى ما يتصور من حدوده، وبهذا يتسارع ذوبانها وانحلالها حتى تكون عبرة لغيرها؛ لأنها لم تفدها العبر والنذر، ولم تهدها الآيات والسور، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

مشروعية سد ذرائع الفساد

إن مما لا خلاف فيه بين الأمة مشروعية سد ذرائع الفساد، ولو كانت في الأصل منبثقة من أعمال الدين المرضية لله عندما تنقلب نتيجتها إلى مفسدة، فمن القواعد المشهورة أن (دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة)[1]، وهذا مما لا خلاف فيه، وقد عني

(١) ينظر؛ الشاطبي: **الموافقات**، ٣٠٠/٥، دار ابن عفان، ط١: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، وكذلك؛ **الاعتصام**، ٤٣٨/١، دار ابن عفان، ط١: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، والسبكي: **الإبهاج في شرح المنهاج**، ٦٥/٣، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤٠٤هـ، وابن السبكي: **الأشباه والنظائر**، ١٢١/١، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١١هـ/١٩٩١م، والزركشي: **المنثور في القواعد**، ١٢٨/١، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، والسيوطي: **الأشباه والنظائر**، ص٨٧، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: ١٤٠٣هـ، والأمير الصنعاني: **إجابة السائل شرح بغية الآمل**، ص١٩٨، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١: ١٩٨٦م، والشوكاني: **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**، ١٣٥/٢، دار الكتاب العربي، ط١: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، والإمام السالمي: **طلعة الشمس**، ص٦٤٢، دار الكتاب المصري/دار الكتاب اللبناني، ط: ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.

الفقهاء والأصوليون بقضية سد الذرائع حتى خصصت بمؤلفات، حتى أن أحد المعاصرين خصصها بمؤلف ضخم في نحو ٨٠٠ صفحة[(١)]، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، بعضها من كتاب الله، وبعضها من سنة نبيه ﷺ، وناهيك من ذلك أن الله تعالى قد يمنع من أمر هو في الأصل قائم على ثوابت الدين، عندما ينعكس أثره سلبيا على الدين، كمنعه سب آلهة المشركين لئلا يسبوا الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، قال قطب الأئمة: «نهاهم أن يسبوا الأصنام؛ لأن سبها سبب لسب المشركين الله عدواً أي تجاوزاً إلى وصفه تعالى بالباطل بغير علم بما يجب وصف الله به، فإن سبَّها طاعة، لكن لما أدى إلى معصية وجب تركه،

(١) هو الشيخ محمد هشام البرهاني في كتابه (**سد الذرائع في الشريعة الإسلامية**) وقد طبعته مطبعة الريحاني ببيروت في عام ١٤٠٦هـ.

ونهى عنه، فذلك نهى عن سب الله، وكذا كل طاعة أدت إلى معصية، فتخرج أن تكون طاعة، فيجب النهى عنها من حيث إنها تؤدي إلى معصية، فالنهى عن المنكر إذا كان يؤدي إلى معصية وجب تركه، وكان معصية، وكذا لو استحق الواحد اللعنة، وكان لو لعنته للعن ابنه أباك، فأنت تقصد بلعنه طاعة لم يجز لك، وقد كان يكفيك لعنه سرًّا أو في غير ذلك الوقت، أو كفى ما سبق من اللعن»[(١)].

وقال أبو عبد الله القرطبي: «نهى سبحانه المؤمنين أن يسبوا أوثانهم؛ لأنه علم إذا سبوها نفر الكفار وازدادوا كفرا، قال ابن عباس: قالت كفار قريش لأبي طالب: إما أن تنهى محمدا وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها، وإما أن نسب إلهه ونهجوه، فنزلت الآية»، وأتبع ذلك: «قال العلماء: حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة،

(١) قطب الأئمة: **هميان الزاد إلى دار المعاد**، ٦(١)/٢١٢، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عمان، ط: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

وخيف أن يسب الإسلام أو النبي عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية»[1].

وقال العلامة السيد رشيد رضا: «ولا تسبوا أيها المؤمنون معبوداتهم، التي يدعونها من دون الله لجلب النفع لهم أو دفع الضر عنهم بوساطتها وشفاعتها عند الله لهم، فيترتب على ذلك سبهم لله سبحانه وتعالى (عدوا)، أي تجاوزا منهم في السباب والمشاتمة التي يغيظون بها المؤمنين إلى ذلك بغير علم منهم أن ذلك يكون سبا لله سبحانه؛ لأنهم وهم مؤمنون بالله لا يتعمدون سبه ابتداء عن روية وعلم، بل يسبونه بوصف لا يؤمنون به كسبهم لمن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتحقير آلهتهم، أو لمن يقول إنها لا تشفع ولا تنفع، أو يقولون قولا يستلزم سبه بحيث يفهم ذلك منهم، وإن لم يعلم ذلك قائله. وهذا

(١) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ٦١/٧.

مما يجب اجتناب سبه، حتى على القول بأن لازم المذهب ليس بمذهب أو يقابلون الساب لمعبودهم بمثل سبه يريدون محض المجازاة، فيتجاوزونها كما يقع كثيرا من المختلفين في الدين والمذهب، يسب نصراني نبي المسلم، فيسب المسلم نبيه، ويريد عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، ويسب شيعي ـ يلاحي سنيا ويماريه ـ أبا بكر فيسب عليا رضي الله عنهما، والأول يعلم أن سب عيسى كفر كسب محمد ﷺ، والثاني يعلم أن سب علي فسق؛ كسب أبي بكر رضي الله عنهما، ومثل هذا يقع كثيرا، بل كثيرا ما يتساب أخوان من أهل دين واحد يسب أحدهما أبا الآخر أو معبوده فيقابله بمثل سبه، يغيظه بسب أبيه مضافا إليه، ويعده إهانة له، فيسبه مضافا إلى أخيه إهانة لأخيه.

وهذا كله من حب الذات والجهل الحامل على المعاقبة على الجريمة بارتكابها عينها، يهين والده المعظم عنده ومعبوده الذي هو أعظم منه احتماء لنفسه وعصبية لها. وقد جاء في الصحيحين عن

عبد الله بن عمرو مرفوعا: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[1]»[2].

وإذا كان هذا في سب الآلهة التي تعبد بباطل، فكيف بسائر الأمور المؤدية إلى الفساد؟ فإن سبها داخل في صميم عقيدة الإسلام الدالة على نبذ كل معبود بباطل، كما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه وقومه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

ومثل ذلك منع بعض الألفاظ التي يجد فيها أعداء الحق سبيلا إلى قول الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا

(١) أخرجه البخاري في **صحيحه**، (٣/٨) برقم: (٥٩٧٣) (كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه)، ومسلم في **صحيحه**، (٦٤/١) برقم: (٩٠) (كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها).

(٢) رشيد رضا: **المنار**، ٥٥٣/٧ ـ ٥٥٤.

﴿وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٠٤]، قال السيد محمد رشيد رضا: «(راعنا) كلمة كانت تدور على ألسنة الصحابة في خطاب النبي ﷺ، والمعنى المتبادر منها لغة هو: راعنا سمعك وهو كأرعنا سمعك: أي اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه، ونراجعك القول فيه لنفهمه عنك، أو راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقيه علينا وفهمه، قال في مجاز الأساس: وراعيت الأمر ـ نظرت إلام يصير وأنا أراعي فلانا ـ أنظر ماذا يفعل، وأرعيته سمعي، وأرعني سمعك، وراعني سمعك اهـ. ولكن الله تعالى نهى المؤمنين عن قول هذه الكلمة، والمشهور في كتب التفسير أن سبب ذلك هو أن اليهود سمعوها، فافترصوها وصاروا يخاطبون بها النبي ﷺ لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلمة شتم بلسانهم العبراني. قيل: كانوا ينطقون بها (راعينا)، وقيل: كانوا يريدون بتحريفها نسبته إلى الرعونة، وفي سورة النساء ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا

وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ [النساء: ٤٦] الآية»[1].

وإذا كان الأمر المشروع الذي هو في أصله راجع إلى عقيدة الحق ومبني على الغيرة عليه يمنع عندما تترتب عليه مفسدة، فكيف بما كان في أصله غير مشروع كالاعتماد على الأشهر الشمسية والسنين الميلادية في ضبط الأوقات؟! فقد علمتَ أن المشروع خلافه بالنص والإجماع.

هذا؛ وما يتكئ عليه المفتونون بالتأريخ الميلادي الدخيل من دعوى أنه مرتبط بميلاد المسيح عليه السلام هو دعوى غير مسلمة، إذ لم يكن المسيح عليه السلام ولا غيره من الأنبياء يوقتون بغير الأشهر القمرية، وهذا معروف مما تبقى من آثار التوراة والإنجيل، ومن ناحية أخرى فإن ميلاد المسيح في التوقيت المزعوم غير مسلم، وهذا ما اعترف به بابا الكنيسة الكاثوليكية السابق بنديكيت

(١) رشيد رضا: **المنار**، ١/٣٣٧ ـ ٣٣٨.

السادس عشر، إذ صرح أن في تأريخ ولادة المسيح عليه السلام خطأ، والأهم من ذلك أننا متعبدون باتباع نبينا عليه الصلاة والسلام لا باتباع غيره، وإن كنا نؤمن بالنبيين جميعا وبما جاؤا به من الحق، ونكن لهم جميعا التقدير والتوقير.

على أن في القرآن ما يدل على عدم صحة هذا التأريخ، وذلك قوله تعالى لأمه مريم عليها السلام عند مخاضها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، فالميقات الذي حددوه ليس هو ميقاتا لجني الرطب، اللهم إلا أن يقال بأن ذلك كان كرامة لها وإرهاصا لنبوة ابنها عليه السلام، ولكن بما أن ذلك لم يدل عليه دليل فلا وجه للقول به؛ لأن الأصل في كل شيء أن يكون في ميقاته الطبيعي.

ولا يخفى أن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وحده هو الواجب حتى على الأنبياء الذين جاؤا قبله لو أدركوا بعثته، كما جاء في رواية أحمد وأبو يعلى والبزار وابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى

النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله، إني أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب، وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! فوالذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[1].

ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى، فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في **مصنفه**، (٤٥٨/١٣) برقم: (٢٦٩٤٩) (كتاب الأدب، من كره النظر في كتب أهل الكتاب)، وأحمد في **مسنده**، (٣١٩٦/٦) برقم: (١٥٣٨٨)، وأبو يعلى في **مسنده**، (١٠٢/٤) برقم: (٢١٣٥).

وقد حذرنا النبي ﷺ من اتباع من قبلنا وأنذرنا أن ذلك سيقع، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»[1].

وقد يتعلل المفتونون بتقليد الآخرين بأن تأريخهم أكثر انضباطا؛ لأن الأشهر القمرية قد تختلف بداياتها ونهاياتها بحسب تباعد الأقطار واختلاف مطالعها بخلاف الأشهر الشمسية، وهذا ساقط؛ لأن الخروج من هذه المشكلة سهل بتحديد اليوم من الأسبوع مع التوقيت الشهري كيوم الخميس أو الجمعة أو السبت، فينضبط بذلك تحديد الموعد.

(١) أخرجه البخاري في **صحيحه**، (١٦٩/٤) برقم: (٣٤٥٦) (كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل)، ومسلم في **صحيحه**، (٥٧/٨) برقم: (٢٦٦٩) (كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى).

ولعمري إن تساهلت الأمة في هذا الأمر العظيم، وتهاونت بهذا الواجب المقدس، ولم تفق من سكرتها وتستبصر بعد عماها، فتحملها الغيرة على دينها والغضب من أجله إلى علاج هذه المشكلة من جذورها، سوف يتكاثر في محيطها أولئك الدجالون من أمثال ذلك الأفاك الذي أعلنها صراحة مدوية بأن مواقيت العبادات المشروعة في القرآن وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام وأجمعت عليه الأمة جميعا هي خطأ وقعت فيه الأمة وانحراف عما هو المشروع في الحقيقة، ولعمري إن الإهمال الذي وقعت فيه الأمة بالاعتماد المطلق على غير التوقيت المشروع والتأريخ المجمع عليه هو الذي جر عليها هذه المصائب التي تتقاذف إليهم من الذين يتربصون بهم الدوائر، فلو فطن لذلك المسلمون من أول الأمر لاستجلوا عواقب هذا الإهمال، وأدركوا مآلاته، ولكن عدم مبالاتهم هو الذي أوصلهم إلى هذا المدى من إحداق الخطر بهم.

لَو أَبصَروا بِقُلوبِهِم لاستَبصَروا
وَعمى البَصائِرِ مَن عَمى الأَبصارِ

ولا يخفى أن هذا التأريخ الذي ألصقوه بالمسيح عليه السلام هو نتيجة تنصر **قسطنطين** إمبراطور الروم وفرضه على النصرانية عادات الروم الوثنية وثقافاتهم، حتى أصبحت النصرانية مزيجا من وثنية الروم القديمة ومما حرف من تعاليم المسيح عليه السلام، وهذا ما قاله القاضي عبد الجبار في كتابه **تثبيت دلائل النبوة**: «إن الروم ما تنصرت ولا أجابت المسيح، بل النصارى ترومت وارتدّت عن دين المسيح، وعطلت أصوله وفروعه، وصارت إلى ديانات أعدائه»[1]، وهذا يؤكده ما ذكره بعض الكاتبين من أن هذا التأريخ نفسه هو تأريخ ميلاد بعض عظماء الوثنيين سابقا[2].

(١) القاضي عبد الجبار: **تثبيت دلائل النبوة**، ١٦٨/١، دار المصطفى ـ شبرا ـ القاهرة.

(٢) ينظر؛ د. أحمد شلبي: **مقارنة الأديان (المسيحية)**، ص ١٨٠ ـ ١٨٨، مكتبة النهضة المصرية ـ مصر، ط ١٠: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ومحمد السليمان الجبهان: **ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق التبشير والنصرانية**، ص ٥٢ ـ ٥٥، ط: ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

لا مانع من الاستفادة

على أنه لا يمنع شرعا من الاستفادة من التوقيت الشمسي في أمور الدين والدنيا، فقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]، بل أشار إلى السنين الشمسية في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥]، ومما يتوقف على هذا التوقيت معرفة الفصول ومواسم الزراعة، بل يتوقف عليه معرفة مواقيت الصلاة بحسب اختلافها بين الفصول الأربعة، وعندما جئت إلى مسقط اطلعت على تقويم بمسجد الخور في تحديد طلوع الفجر على مدار العام الشمسي، وبحسب التوقيت الغروبي للساعة، وقد أخبرني شيخنا العبري أن ذلك كان من شيخ الإسلام المحقق الخليلي، عندما أقام بمسقط في عهد الإمام العدل عزان بن قيس رحمهما الله.

الحـــل المقتـــرح

إن أول ما يجب على هذه الأمـــة جميعا أن تولي هذا الأمر من العناية ما هو حقيق به، وأن تتبع الخطط السليمة في علاج هذا الداء وحل هذه المشكلة، وذلك يتمثل في أمور:

أولها: أن تعتمد على التوقيت والتأريخ الإسلاميين اعتمادا مطلقا في جميع أمورها، وذلك يتمثل في:

أ ـ أن يكون ذلـــك هو التأريخ المعـــول عليه في المدارس والمؤسسات التعليمية جميعا، وفي وسائل الإعلام، وجميع الوسائل الثقافية.

ب ـ أن تُكيَّفَ بذلك الحياة اليومية، وكل ما يمر بها من أحوال الفرد والمجتمع.

جـ ـ أن تؤرخ به جميع الأحداث من ولادة أو وفاة أو ما يحصل بينهما.

د ـ أن يُعوَّد الصغار والكبار على اعتماد هذا التأريخ وترك ما سواه.

هـ ـ أن يعتمد عليه اعتمادا مطلقا في توقيت جميع المواعيد في اللقاءات التي تجمع الناس على اختلاف فئاتهم.

و ـ أن تعقد دورات لأجل توعية الناس بهذا الأمر، وأنه من صميم الدين واتباع نصوصه والاعتزاز بتأريخ خير داع إليه رسول الله ﷺ.

ز ـ أن يعتمد عليه في المناسبات الدينية والوطنية.

حـ ـ أن تبنى عليه جميع المعاملات المالية والعقود بين المتعاقدين سواء على المستوى الرسمي أو العادي.

ثانيها: أن لا تألو الأمة جهدا في توعية أبنائها بضرورة هذا كله؛ لأجل محافظتها على استقلالها السياسي والثقافي، ومحافظتها على تراثها الفكري والحضاري.

ثالثها: أن ينبه الناس على ضرورة التعاضد والتعاون على هذا، وخطورة إهمال ذلك.

رابعها: أن يقتصر في الاعتماد على التوقيت الشمسي على ما هو ضروري من ذلك، كدراسة الفصول واختلاف الأيام فيها في مواقيت الصلوات، وبداية أوقات الإمساك في الصيام، وعلى ما لا يمكن أن يؤخذ فيه إلا به كحركة الملاحة العالمية وغيرها، مما يعسر ضبطه إلا به لضرورة التفاهم فيه بين جميع المجتمعات الإسلامية وغيرها، ومن المعلوم أن المجتمعات غير الإسلامية من العسير أن يكون التخاطب معها بحسب التقويم القمري لعدم استساغة ثقافتها له.

ولا ريب أن من الناس سيصم هذه الدعوة بأنها يراد منها رد الأمة إلى الوراء وثنيها إلى التخلف، وهذا لا يضير عندما يوجد من الناس من صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وحرصوا على ما فيه استقلال الأمة من كل تبعية لغيرها، ولربما تعلل بعضهم بأن مصالح البشر الآن متشابكة وشؤنهم متداخلة، فهم بحاجة إلى

التعامل مع الآخرين، وجواب ذلك أن الأمة عندما تصدق في المحافظة على مواريثها وتمسكها بحقيقة دينها سيجد الآخرون أنفسهم مضطرين إلى التعامل معها حسبما تقتضيه إرادتهم، وقد اطلعت بنفسي على رسائل وجهها المستعمرون إلى حكام هذه الأمة، كانت مؤرخة بالتأريخ الهجري، على أن هذا التحول يجب أن لا يكون طفرة واحدة وإنما يكون تدريجيا، وفي أثناء ذلك لا حرج عليهم إن ذكروا التأريخ الآخر بجانب التأريخ الإسلامي إن اضطروا إليه، وتقدر الضرورة بقدرها، مع عدم إهمال الاستفادة منه فيما يعود بالنفع على الناس في الدين والدنيا.

والله الموفق، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

٩/شوال/١٤٤٤هـ